الباب الثالث

الرواية والسماع

الفصل الأول

اتصال الرواية

من الجاهلية حتى القرن الثانى

١

والرواية ، بمدلولها العلمى الأدبى ، طور لغوى متأخر ، سبقه — فيما نرى — طور ذو دلالة مادية حسية ، نحسبها كانت فى بدء أمرها محصورة فيما يتصل بالماء من إناء يحمّل فيه كالمزادة ، ومن حيوان يحمل عليه كالبعير ، ومن إنسان يحمله مستقياً أو متعهداً دابةَ السقاية.[١] قال لبيد من أبيات[٢] :

فتولَّوْا فاتِرًا مَشْيُهُمُ كَرَوَايا الطَّبْعِ هَمَّتْ بالْوَحَلْ

فالروايا من الإبل : الحوامل للماء ، واحدتها : راوية .

وقال الأعشى[٣] :

وَتَقْوَادُهُ الخَيْلَ حَتَّى يَطُو لَ كَرُّ الرُّوَاةِ وإِيْغَالُهَا

فالرواة هنا : من يقومون على الخيل ، مفردها : راوٍ

ثم صارت الروايةُ تطلق على مطلق الحمل ، والراويةُ على الدابة التى تُتخَذُ لحمل المتاع إطلاقاً ، كقول زهير[٤] :

يَسِيرون حتَّى حَبَّسُوا عندَ بابِهِ ثِقَالَ الروايا والهِجانَ المَتَالِيَا

---

(١) قال الجاحظ (الحيوان ١ : ٣٣٣) « الراوية ؛ هو الجمل نفسه ، وهو حامل المزادة ، فسميت المزادة باسم حامل المزادة ، ولهذا المعنى سموا حامل الشعر والحديث راوية » .

(٢) ديوانه (القسم الثانى ط . بريل ١٨٩١) ص : ١٧ . الطبع : السقاء ، أو نهر بعينه .

(٣) ديوانه ق : ٢١ ، ب : ٣٧ .

(٤) ديوانه : ٢٩١ . الهجان : كرام الإبل . المتالى : التى يتبعها أولادها ، الواحدة : متلية .

فالروايا هنا : الإبل التى يحمل عليها المتاع إطلاقاً .

ومن مجاز هذا الحمل : حمل الدِّيات ،كقولهم : « إن فلاناً لراوية الديات» أى : حاملها ، و « بنو فلان روايا الحمالات » . قال أبو شأس[١] :

وَلَنا رَوايا يَحْمِلُون لنَا أَثْقَالَنا إذْ يُكرَهُ الْحَمْلُ

وقال الكميت :

وَكُنَّا قَدِيمًا رَوَايا المِئِين بنَا يَثِقُ الْجَارِمُ المُبْسَلُ

ثم صارت الروايا تدل على السادة ، لأنهم يقومون بأعباء غيرهم ويحملون عنهم أثقالهم .

قال رجل من بنى تميم — وذكر قوماً أغاروا عليهم — « لقيناهم فقتلنا الروايا ، وأبحنا الزوايا » أى : قتلنا السادة وأبحنا البيوت[٢] .

ومن مجاز هذا الحمل أيضاً : حمل الشعر أو الحديث ، فقالوا : فلان راوية للأدب والشعر ، وراو للحديث . وراوية الشعر فى الجاهلية هو من يحمل شعر الشاعر وينقله ويذيعه ، قال النابغة الذبيانى[٣] :

أَلِكْنِى يا عُيَيْنُ إليْكَ قَوْلًا سَتُهْدِيه الرواةُ إليكَ عَنِّى

وقال عَميرة بن جُعَل — وكان قد هجا قومه بنى تغلب ثم ندم[٤] :

نَدِمْتُ على شَتْمِ العَشِيرة بعد ما مَضَتْ واسْتَتَبَّتْ للرُّوَاةِ مذَاهِبُهْ
فأَصبحتُ لا أَستطِيعُ دَفْعًا لِمَامَضَى كَما لا يَرُدُّ الدَّرَّ فى الضَّرْع حَالِبُهْ

---

(١) أساس البلاغة (روى) .
(٢) أساس البلاغة (روى) .
(٣) تفسير الطبرى ١ : ١٥٦ والذى فى ديوانه (خمسة دواوين) ص : ٧٩ « سأهديه إليك عنى » .
(٤) الشعر والشعراء ٢ : ٦٣٢ .

وقال حميد بن ثور[١]:

لأعترضَنْ بالسَّهْلِ ثم لأَحْدُوَنْ قصائدَ فيها للمعاذيرِ زاجرُ
قصائدَ تستحلِي الرُّواةُ نشيدَها ويلهو بها من لاعب الحيِّ زامرُ

وقال أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « بأبي أنت ، ما أنت بشاعر ولا راوية ، ولا ينبغي لك » . ولما حضرت الحطيئةَ الوفاةُ اجتمع إليه قومه فقالوا[٢] : « يأبا مُلَيكة ، أوصِ » .فقال : « ويل للشعر من راوية السوء » .

وذلك كله إنما الأصل فيه هو الماء : حمله وحامله من رجل أو دابة . غير أن هذا الضرب الأخير من المجاز ، وهو الحمل الأدبي ، قد مر كذلك ، فيما يبدو ، في مرحلتين : الأولى خاصة بالشعر وحده — وتعني مجرد حفظه ونقله وإنشاده ، ولا تتجاوز ذلك إلى ضبطه وتحقيقه والنظر فيه وتمحيصه . واستمر مدلول هذه المرحلة الأولى في تاريخ الرواية الأدبية حتى آخر القرن الأول وبداية القرن الثاني. قال محمد بن المنكدر (التيمي المدني المتوفى سنة ١٣٠)[٤] : « ما كنا ندعو الرواية إلا رواية الشعر ، وما كنا نقول هذا يروى أحاديث الحكمة إلا عالم » .

فلما أُصِّلت أصول علم الحديث ،وأرسيت قواعده ، وعُنِيَ فيه بالإسناد ، وتصدر المحدِّثون للتحديث في مجالس العلم من حفظهم ، صار يطلق عليهم أيضاً لفظ الراوية ، فصرنا نجد للمحدثين ، في آخر القرن الثاني ، رواة كما كان للشعراء رواة ، ومنهم « النضر بن طاهر راوية مالك بالبصرة »[٥] .

ومن هنا دخلت الرواية الأدبية في طورها الثاني ، وهو ما يصحّ أن نطلق

---

(١) ديوانه ٨٩ .
(٢) ابن سعد ٤/٢ : ١٦ .
(٣) الأغاني (دار الكتب) ٢ : ١٩٥ وانظر أيضاً : الشعر والشعراء ١ : ٢٨١ .
(٤) ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله ، المطبعة المنيرية ١٣٤٦ هـ ، ٢ : ٤٧ .
(٥) الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين : ٦ .

عليه دور الرواية العلمية . وهى تقوم على الحفظ والنقل والإنشاد ، كالرواية المجردة فى دورها الأول ، وأضيف إليها الضبطُ والإتقان والتحقيق والتمحيص والشرح والتفسير وشىء من الإسناد ، كما سيمر بنا فى الفصل التالى عند حديثنا عن طبقات الرواة ، وفى الفصل الثالث حين نتحدث عن الإسناد فى الرواية الأدبية . وهذا الدور من الرواية الأدبية هو الذى قامت فيه مجالس العلم والدرس ، وصار لهذه المجالس شيوخ يتصدرون ، وتلاميذ يستمعون ويقرأون ، وكانت لهذه الرواية العلمية — على ما بيَّنا طرفاً منه — دعامتان : القراءةُ من الكتاب ، والسماعُ من الشيخ .

وما ذكرناه فى الباب الأول من أمر الكتابة والتدوين بعامة ، وكتابة الشعر وتدوينه بخاصة ، ثم ما ذكرناه بعد ذلك من أمر اتصال العلماء الرواة فى القرن الثانى بالمدونات السابقة واستمدادهم منها — كل ذلك حديث موهمٌ ، قد يُحمَّل محملاً فيه سعةٌ وتعميم لم نقصد إليهما . ومن هنا ينبغى لنا أن نقرر أموراً ثلاثة يستقيم بها للبحث وجهه ، الأول : أن هذا التدوين الذى ذكرناه — على ما كان من وجوده بل انتشاره — لم يكن له من سعة هذا الانتشار ما يتيح وجود نسخ كثيرة من الديوان الواحد تفى بحاجة القارئين آنذاك . وأن ذيوع شعر الشاعر أو أخبار القبيلة ومآثرها لم يكن قائماً على القراءة من الديوان أو الكتاب ، وإنما كان يقوم على الرواية الشفهية من فرد إلى فرد ومن جيل إلى جيل . أجل ، لقد كان هذا الشعر أو بعضه مدوناً — كما بيَّنا — ولكن تدوينه كان مقصوراً على نسخة واحدة — هى الأم أو المرجع — أو على نسخ قليلة محدودة ينسخها أفراد قلائل من الرواة أو الشعراء أو أبناء قبيلة الشاعر أو الممدوحين من السادة والأشراف ، ثم يحفظ هؤلاء جميعاً ، أو بعضهم ، هذا الشعر ، ويتناقلونه إنشاداً — لا قراءة — فى مجالسهم ومشاهدهم وأسواقهم ، ويرددونه شفاهاً فى سمرهم ومحافلهم ومنافراتهم ومواقف فخرهم ، فيشيع بين العرب ، ويتناقله الركبان ، عن هذا الطريق من الرواية الشفهية ، لا عن طريق القراءة والمدارسة من الكتاب

أو الديوان . وذلك أمر طبيعى عند العرب وعند غيرهم ، فى تلك العصور وفى العصور التى تلتها إلى عهد قريب حينما اكتُشفت الطباعة فيسَّرت كتابة النسخ الكثيرة من الكتاب الواحد .

وأما الأمر الثانى فيتصل بالأمر الأول ، وذلك أن رواة الشاعر نفسه — وهم أول من يسمع شعر الشاعر وأهم وسيلة من وسائل نشر شعره وإذاعته — هؤلاء الرواة كانوا يكتبون شعر الشاعر حقًّا ،ويحفظونه فى صحف ودواوين ، ولكنهم مع ذلك يحفظون هذا الشعر فى صدورهم وذاكرتهم ، وينقلونه فى المجالس والمحافل إنشاداً لا قراءة من صحف . وقد كان ذلك كذلك فى جميع العصور الإسلامية : فقد كان جرير يريد أن يهجو بنى نمير ، فأقبل إلى منزله وقال للحسين راويته[١] : زد فى دهن سراجك الليلةَ وأعددْ ألواحاً ودواة .قال : ثم أقبل على هجاء بنى نمير ، فلم يزلْ حتى ورد عليه قوله :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّك من نُمَيْرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ ولا كِلابَا

فقال جرير للحسين راويته : « حسبك أطفئْ سراجك ، ونم ،فقد فرغت منه » — يعنى قتلته .

وهجت بنو جعفر بن كلاب قومَ الفرزدق ، فأراد أن يهجوهم ، ولكنه قال[٢] : والله ما أعرف مثالبهم ولا ما يهجَوْن به » . فبينا هو كذلك إذ قدم عمر بن لجأ التيمى البصرةَ ، فنزل فى بنى عدىّ فى موضع دار أعين الطيب . فقال الفرزدق لابن مُتَّوَيْه — وهوراوية الفرزدق وكان يكتب شعره : «امض بنا إلى هذا التيمىّ . قال : فخرجنا حتى وقفنا على الباب الذى هو فيه ، فأستأذنّا ، وعند ابن لجأ فتيان من بنى عدىّ يكتبون فخره بالرَّباب . . . » .

وهذا شيخ من هذيل ، كان خالاً للفرزدق من بعض أطرافه ، يقول[٣] :

---

(١) النقائض: ٤٣٠ .

(٢) النقائض: ٩٠٧ — ٩٠٨

(٣) الأغانى (دار الكتب) ٤ : ٢٥٦—٢٥٨ .

« . . . فجئت الفرزدق . . . ودخلت على رواته فوجدتهم يعدلون ما انحرف من شعره ، فأخذتُ من شعره ما أردت . . . ثم أتيت جريراً . . . وجئت رواته وهم يقومون ما انحرف من شعره وما فيه من السناد ، فأخذت ما أردت . . »

ومع ذلك فقد كان هؤلاء الرواة — على كتابتهم للشعر فى الدواوين وحفظهم إياه فى الصحف — ينشدون الشعر إنشاداً ويذيعونه بين الناس والقبائل عن طريق الرواية الشفهية ، ومن أجل ذلك قال جرير[١] :

وَعَاوٍ عَوَى من غيرِ شىء ، رَمَيْتُه بقافيةٍ أنفاذُها تَقْطُرُ الدَّمَا
خَروجٍ بأفواهِ الرواةِ كأنَّها قَرَى هُنْدُوَانىٌّ إذا هُزَّ صَمَّما

وقال الفرزدق[٢] :

تَغَنَّى يا جريرُ لغير شىء وقد ذهب القصَائدُ للرُّواةِ
فكيف تَرُدُّ ما بِعُمَانَ منها وما بجبال مصرَ مُشَهَّرات

وأمر ثالث يكمل سابقيه ، وهو متصل بهؤلاء العلماء الرواة الذين عاشوا فى نهاية القرن الثانى ومطلع الثالث والذين حفظوا لنا هذا الشعر الجاهلى الذى وصل إلينا . فقد ذكرنا من أمر تدوينهم للشعر وأخذهم بعضَه من الدواوين والكتب التى دونت قبلهم — ما لاحاجة بنا إلى إعادة القول فيه ، واكنا نريد أن نقول إنهم ، مع ذلك ، كانوا ينقلون بعض الشعر الجاهلى والأخبار الجاهلية فى مجالسهم نقلاً شفهيًّا . والأمثلة على ذلك كثيرة حسبنا أن نشير إلى بعضها . فقد مر بنا أن كتب ابن الأعرابى كانت كثيرة وأن رسولا لأحد ذوى السلطان جاءه يستدعيه فقال له ابن الأعرابى : عندى قوم من الأعراب

---

(١) النقائض : ٤٣٠ .

(٢) النقائض : ٦٢ .

فإذا قضيتُ أربى معهم أتيت . قال الغلام « وما رأيت عنده أحداً إلا أنى رأيت بين يديه كتباً ينظر فيها ، فينظر فى هذا مرة وفى هذا مرة » . ابن الأعرابى هذا — على أخذه من الكتب — يقول عنه ثعلب[١] : شاهدت ابن الأعرابى ، وكان يحضر مجلسه زهاء مائة إنسان ، كل يسأله أو يقرأ عليه ، ويجيب من غير كتاب ، قال : ولزمته بضع عشرة سنة ما رأيت بيده كتاباً قط ، وما أشك فى أنه أملى على الناس ما يُحمل على أجمال .

وقد كان ثعلب مثل أستاذه ابن الأعرابى « لا يُرى بيده كتاب ، ويتكل على حفظه[٢] » بينما كان معاصرُه أبو سعيد السكرى « كثير الكتب جداً ، وكتب بخطه ما لم يكتبه أحد ، وكان إذا لقى الرجال لا يفارقه كتاب »[٣] .

وكان هؤلاء العلماء يأخذون عن الأعراب ، وقد يرحلون إلى البادية وراء الأعراب ، أو يفد هؤلاء الأعراب إلى الأمصار ليتكسبوا بما يأخذه عنهم العلماء . ومن أمثلة ذلك ما ذكره ثعلب من أن أبا عمرو الشيبانى « دخل البادية ومعه دَسْتيجتان من حبر فما خرج حتى أفناهما بكَتْب سماعه عن العرب »[٤] .

وكان هؤلاء العلماء قد يأخذون أيضاً عن غير الأعراب من الرواة وأصحاب الأخبار أخْذَ سَمَاع من أفواههم لا أخذ قراءة من كتبهم . ومن أمثلة ذلك أن الجاحظ — على ما هو معروف عنه من كثرة جمعه للكتب وشغفه بها ونقله منها فى كتبه[٥] — كان يكتب كثيراً مما يورده فى كتبه إما من السماع وإما من

---

(١) ياقوت ، إرشاد (محمد بن زياد) ، وانظر أيضاً نزهة الألباء : ١٠٨ ففيه « قال أبو جعفر القحطبى : ما رئى فى يد ابن الأعرابى كتاب قط » .

(٢) القفطى ، إنباه الرواة ١ : ١٤٨ .

(٣) القفطى ، إنباه الرواة ١ : ١٤٨ .

(٤) الأنبارى ، نزهة الألباء : ٦٣ .

(٥) انظر مثلا البيان والتبيين ٣ : ٥٧ — ٥٨ حيث يورد حديثين عن العتبى عن أعرابيين فى العصا ، ثم يقول « وهذان الحديثان لم أسمعهما من عالم ، وإنما قرأتهما فى بعض الكتب من كتب المسجدين » . وانظر أيضاً لأخذه من الكتب : البيان والتبيين ١ : ٩٢ ، ١٣٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ .

حفظه فهو يقول[١] : « وقد جمعت لك فى هذا الكتاب جملاً التقطناها من أفواه أصحاب الأخبار » ، وهو يورد بيتاً ثم يقول[٢] : « وهى أبيات لم أحفظ منها إلا هذا البيت » .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما ذكره أحمد بن عبيد الله بن عمار قال[٣] : « كنا نختلف إلى أبى العباس المبرد ، ونحن أحداث ، نكتب عن الرواة ما يروونه من الآداب والأخبار . . . فانصرفنا يوماً من مجلس أبى العباس المبرد وجلسنا فى مجلس نتقابل بما كتبناه ونصحح المجلس الذى شهدناه . . »

وقد أوردنا هذه الأمثلة — على الأمور الثلاثة كلها — من عصور مختلفة تشمل القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، وهى تدل على أن الرواية الشفهية كانت تسير جنباً إلى جنب مع الكتابة والتدوين ، لا تعارُضَ بينهما ، ولا ينفى وجودُ أحدهما وجود الآخر . ومن هنا كان لابد لنا — بعد أن استوفينا البحث ، بالقدْر الذى بلغه جهدُنا ، عن تدوين الشعر الجاهلى — من أن نعقد فصول هذا الباب الثالث عن الرواية الشفهية ، حتى تتم بذلك الدعامتان اللتان قام عليهما حفظ الشعر الجاهلى وحمله ، وهما : النقل من الكتاب ، والسماع من أفواه الرواة .

٢

أورد ابن سلاّم فى طبقاته قول عمر بن الخطاب[٤] « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » . ثم عقب عليه بقوله « فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته .

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٨ .
(٢) الحيوان ٢ : ١٣ .
(٣) الأغانى (دار الكتب) ٧ : ١٢٠ .
(٤) طبقات فحول الشعراء : ٢٢ .

فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مُدوّن ولا كتاب مكتوب ، وألفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير » .

وكلام ابن سلاّم هذا ثلاثة أشطر : آخرها حقٌّ ، ومُوْسَطها باطل ، وأولها يحتاج إلى فضل بيان يوضحه . أما الحق الذى لا مريةَ فيه فقوله « فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير » . وسنعود فى صفحات مقبلة إلى هذا القول ونفصّل وجه الحقّ فيه . وأما الباطل الذى لم نعد نشك فى بطلانه وفساده فهو هذا التعميم الواسع فى قوله « فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب » . وقد كان فى البابين الأول والثانى من هذا البحث من البيان والتفصيل ما نحسب أنه يُغنينا عن تكرار القول . وحسبنا أن نورد ثلاثة أمثلة من كتاب ابن سلام نفسه تنقض هذا القول ، أو — على الأقل — تضيّق مافيه من تعميم واسع . فقد عاب ابنُ سلام بعض العلماء قبله — أى علماء القرن الأول الهجرى — باكتفائهم بالأخذ عن الدواوين المدونة والكتب المكتوبة ، فنبزهم بأنهم صحفيون وذلك قوله عن الشعر القديم[1] « وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء . وليس لأحد — إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىء منه — أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى » . وقد قال عقب قوله السابق الذى أنكر فيه هذه المدونات[2] : « وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول ، وما مُدح هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بنى مروان أو صار منه » . ثم ذكر ابن سلام نفسه أنه رأى شعراً جاهليًّا « فى

(١) طبقات فحول الشعراء: ٦ .
(٢) المصدر السابق: ٢٣ .

كتاب كتبه يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة »[1] . فإذا ما أضفنا إلى كلام ابن سَلام ما فصلنا فيه القول فى البابين الأول والثانى — وضح لنا ما فى قوله « فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب » من خلل وفساد .

وأما الشطر الثالث الذى يحتاج إلى فضل بيان يوضحه فهو قوله : « فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر . . . وألفَوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل » . ولا يستبين لنا خطر هذا القول إلا حين نتطرق إلى الحديث عن الشكّ فى الشعر الجاهلى ونحله ، فى الباب الرابع من هذا الكتاب . ولا بد لنا قبل ذلك من أن نتساءل هنا : أحق أن العرب قد لَهَوْا عن رواية الشعر فى هذه الفترة من حياتهم ، فغفلوا عنه ، ونسوا ذكره ، وأضربوا عن روايته ؟ وإذا كان ذلك كذلك ، فكم من السنين أو من القرون بلغت هذه الفترة ؟ ثم أمن الحق أنهم حينما راجعوا روايته — إذا سلمنا بانقطاعهم عنها — ألفَوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة لابد لنا من استقراءٍ تاريخى ، نتتبع فيه حياة الرواية عند القوم مبتدئين بالمعالم الواضحة فى منتصف القرن الثانى الهجرى ، ومتدرجين فيها إلى الوراء حتى نصل إلى أقصى ما نستطيع أن نصل إليه من معالم حياة الرواية الأدبية .

فإذا ما بدأنا بعهد بنى أمية ، وجدنا أن بعض القوم آنذاك كان يرى أن العلماء العارفين بالشعر الجاهلى قد ماتوا . ونحن نحسب أن هذا الضرب من الكلام موجود فى كل عصر ، وأنه لا يصح أن يُحمَل محملاً لفظيًّا قاطعاً ، وإنما هو ضرب من التحسر على الماضى ، وتمجيد القدماء ، والإقرار بضعف الحاضر وعجزه إذا ما قيس بالقديم السابق عليه . فأبو عمرو بن العلاء حينما سئل

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٢٠٤ .

عن قول امرئ القيس[١] .

نَطْعَنُهُمْ سُلْكَى وَمَخْلُوجَةً كَرُّكَ لَأْمَيْنِ على نابلِ

قال : قد ذهب من يُحسنه .

وحين سئل عن قول الشاعر[٢] :

زَعَمُوا أَنَّ كلَّ منْ ضَرَبَ العَيْـــــرَ مُوالٍ لَنَا وأَنَّا الوَلاءُ

قال : مات الذين يعرفون هذا .

بل إن الحجاج بن يوسف الثقفىّ قال على المنبر[٣] : « ذهب قوم يعرفون شعر أُمية وكذلك اندراسُ الكلام ! ! » وبين الحجاج وأمية بن أبى الصلت نحوٌ من ثمانين سنة !

وسنسوق فى إيجاز بعض ما يكشف لنا عن عناية القوم ، حتى منتصف القرن الأول ، برواية الشعر الجاهلى وأخبار الجاهلية ، وسنصرف أكثر كلامنا إلى زمن عبد الملك بن مروان ومعاوية بن أبى سفيان ، ليكون ذلك أبعدَ زمناً وأدلَّ على ما نقصد إليه :

ذكر الأصمعى يوماً بنى أمية وشغفهم بالعلم ، فقال[٤] : « كانوا ربما اختلفوا وهم بالشام فى بيت من الشعر ، أو خبر ، أو يوم من أيام العرب ، فيبردون فيه بريداً إلى العراق » . وقال غيره « كنا نرى فى كل يوم راكباً من ناحية بنى أمية ينيخ على باب قتادة (توفى سنة ١١٨) يسأله عن خبر أو نسب أوشعر ، وكان قتادةُ أجمعَ الناس » . وقال عامر بن عبد الملك المِسْمعىّ : كان

---

(١) المزهر ٢ : ٣٢٣ – ٣٢٤ . سلكى : طعناً مستوياً . المخلوجة : المعوجة عن يمين وعن شمال ؛ الكر : الرد . اللأمان : السهمان .

(٢) المصدر السابق . العير : الوتد . أى أنهم يلزمونها ذنوب الناس .

(٣) الأغانى ٣ : ١٢٣ .

(٤) العسكرى ، التصحيف والتحريف : ٤ .

الرجلان من بنى مروان يختلفان فى بيت شعر ، فيرسلان راكباً إلى قتادة يسأله ، ولقد قدم عليه رجل من عند بعض أولاد الخلفاء من بنى مروان فقال لقتادة : من قتل عمراً وعامراً التغلبيين يوم قِضَّة ؟ فقال : قتلهما جحدر بن ضبيعة ابن قيس بن ثعلبة . قال : فشخص بها ثم عاد إليه فقال : أجل قتلهما جحدر ، ولكن قتلهما جميعاً ؟ فقال : اعْتوراه فطعن هذا بالسنان وهذا بالزُّج فعادى بينهما[١] .

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج[٢] : أنت عندى كسالم . فلم يدر ما هو . فكتب إلى قُتيبة يسأله ، فكتب إليه : إن الشاعر يقول :

يُدِيرُونَنى عن سَالمٍ وأُدِيرُهُمْ وَجِلْدَةُ بَيْنَ الأَنفِ والعينِ سالمُ

ثم كتب إليه مرةً أخرى : أنت عندى قِدْحُ ابن مُقبل . فلم يدر ما هو . فكتب إلى قُتيبة يسأله — وكان قتيبة قد روى الشعر — فكتب إليه : أن ابن مقبل نعت قدحاً له فقال :

مُفَدَّى مُؤَدًّى باليَدَيْنِ مُلَعَّنٌ خَلِيعُ قِداحٍ فائزٌ مُتَمَنَّحُ
خَروجٌ من الغُمَّى إذا صُكَّ صَكَّةً بدا والعيونُ المُسْتَكِفَّةُ تَلمَعُ[٣]

وقال أبو عبيدة[٤] : حدثنى قيس بن غالب عن مشيخة قومه أن عبد الملك ابن مروان سأل رجالاً من بنى فزارة كانوا عنده : من كان على الناس يوم النِّسار ؟ قالوا : كانوا متساندين . قال : ويدخل أبو قشع — وكان أعلمنا —

---

(١) العسكرى ، التصحيف والتحريف : ٤ ، وانظر طبقات ابن سلام : ٥١ - ٥٢ .
(٢) القالى ، الأمالى ١ : ١٥ ، وانظر أيضاً ياقوت : إرشاد ١ : ٩٧ ، وفى ياقوت « . . . فسأل قتيبة بن مسلم وكان راوية عالماً عن ذلك » .
(٣) المتمنح : المستعار . الغمى : الجماعة من القداح . المستكفة : المحدقة به .
(٤) النقائض : ٢٤٠ .

فسأله عبد الملك عن ذلك فقال : والذى نفسى بيده يا أمير المؤمنين للناس يوم النسار أطوعُ لحصن بن حُذيفة من بعض غلمانك لك .

وقال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث (توفى سنة ٨٤) يذكر أخذه الشعرَ والنسبَ عن الشعراء والنسابين[١] « قدم عبد الملك — وكان يحب الشعر — فبعثتُ إلى الرواة ، فما أتت عليَّ سنة حتى رويت الشاهد والمثل وفضولاً بعد ذلك . وقدم مُصْعب (توفى سنة ٧٣) — وكان يحب النسب — فدعوت النسابين فتعلمته فى سنة . ثم قدم الحجاج — وكان يُدنى على القرآن ، فحفظته فى سنة . »

وتبدو لنا عناية عبد الملك بالشعر وروايته — فضلاً عما تقدم — فى قوله لمؤدب ولده[٢] : « روِّهم الشعر ، روِّهم الشعر ، يمجدوا وينجدوا » . وقال مرة لمؤدب أولاده[٣] : « أدِّبهم برواية شعر الأعشى فإن لكلامه عذوبة » . وهل أدل على معرفة عبد الملك بالشعر الجاهلى معرفةً دقيقة من قوله[٤] . إذا أردتم الشعر الجيد فعليكم بالزُّرْق من بنى قيس بن ثعلبة — وهم رهط أعشى بكر — ، وبأصحاب النخل من يثرب — يريد الأوس والخزرج — ، وأصحاب الشعف من هُذَيل (والشعف رؤوس الجبال) .

بل هل أدل على معرفة عبد الملك بشعر الجاهلية وأخبارها وعنايته بجمع ذلك مما أورده ياقوت فى قوله[٥] : « كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج : انظر لى رجلاً عالماً بالحلال والحرام ، عارفاً بأشعار العرب وأخبارهم ، أستأنس به وأصيب عنده معرفة ، فوجِّهه إلىّ من قبلك . فوجه إليه الشعبى ، وكان أجمع أهل زمانه ، قال الشعبى : فلم ألقَ والياً ولا سوقةً إلا وهو يحتاج إلىّ ولا أحتاج

---

(١) الجاحظ ، الحيوان ٥ : ١٩٤ — ١٩٥ .
(٢) ابن عبد ربه ، العقد ٦ : ١٢٥ .
(٣) جمهرة أشعار العرب : ٦٣ .
(٤) العقد ٦ : ١٢٤ .
(٥) ياقوت ، إرشاد ١ : ٩٦ — ٩٧ .

إليه ما خلا عبد الملك ، ما أنشدته شعراً ولا حدّثته حديثاً إلا وهو يزيدني فيه ، وكنت ربما حدثته وفي يده اللقمة فأمسكها ، فأقول : يا أمير المؤمنين أسغْ طعامك ، فإن الحديث من ورائه ، فيقول : ما تحدثني به أوقعُ بقلبي من كل لذة ، وأحلى من كل فائدة » .

أما معاوية بن أبي سفيان فقد مرت بنا أطراف من عنايته بأخبار الماضين ، وأيام العرب في جاهليتهم ، وشعر شعرائهم . وذكرنا أنه كان له غلمان مرتبون يكتبون هذه الأحاديث في دفاتر ويقرأونها عليه في ساعات معينة من ليله . وكانت لمعاوية — فضلاً عن ذلك — مجالس يُنشِد هو ما يحفظ من الشعر فيها ، ويستنشد من يحضر من الرواة والعلماء والأعراب ، ويستمع فيها إلى أحاديث العرب وأخبارها . وقد قال مرة للنخار بن أوس[1] : « ابغني محدّثاً . قال: ومعي يا أمير المؤمنين تريد محدثاً ! قال : نعم ، أستريح منك إليه ، ومنه إليك . . . »

وقد التفت معاوية في أحد مجالسه إلى عبد الله بن الزبير وقال متمثلاً[2] :

وَرَامٍ بِعُوْران الكَلَامِ كأنّها نوافرُ صُبْحٍ نَفَّرَتْها المراتعُ
وقد يَدْحَضُ المرءُ المُوارِبُ بالخَنَا وقد تُدْرِكُ المَرْءَ الكريمَ المصانعُ

ثم قال لابن الزبير : من يقول هذا ؟ فقال : ذو الإصبع . فقال : أترويه ؟ قال : لا . فقال : مَن ها هنا يروى هذه الأبيات ؟ فقام رجل من قيس فقال : أنا أرويها يا أمير المؤمنين . فقال : أنشدنى . فأنشده حتى أتى عليها . . . فزاد معاوية في عطائه .

وخاصم رجل إلى معاوية في ابن أخيه ، فجعل الرجلُ يحجُّ خصمه ، فقال معاوية : أنت كما قال أبو دُوَاد[3] :

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٣٣٣ .
(٢) الأغاني ٣ : ١٠٠ — ١٠١ . يدحض : يزل ويزلق .
(٣) الزمخشري، الفائق ١ : ٢٤٠. الحرباء مذكر ، والأنثى حرباءة .التنضية : شجرة =

أَنَّى أُتِيحَ لها حِرْباءُ تنضِيَةٍ لا يرسلُ الساقَ إلّا مُمْسِكًا سَاقَا

وسأل معاوية شيخاً من بقايا العرب[١] : أى العرب رأيته أضخم شأناً ؟ قال : حصْن بن حُذيفة — قائد ذُبيان يوم شِعْب جَبَلَة — رأيته متوكئاً على قوسه يقسم فى الحليفين : أسد وغَطفان .

وذُكر عند معاوية ، فى أحد مجالسه ، ملوكُ العرب ، فلما ذُكرت الزباء وابنة عَفزر قال معاوية[٢] : إنى لأحب أن أسمع حديث ماوية وحاتم . فقال رجل من القوم : أفلا أحدثك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : بلى . فقال : إن ماوية بنت عفزر كانت ملكة وكانت تتزوج من أرادت . . . إلى آخر القصة .

وبعث زياد بن أبيه بولده إلى معاوية[٣] ، فكاشفه عن فنون من العلم فوجده عالماً بكل ما سأله عنه ، ثم استنشده الشعر ، فقال : لم أرْوِ منه شيئاً ! فكتب معاوية إلى زياد : ما منعك أن تُرويه الشعر ؟ فوالله إن كان العاقّ ليرويه فيبرّ ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو ، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل .

ولم تكن هذه المجالس ، التى تُذكر فيها أخبار الجاهلية ويُروْوَى فيها شعر شعرائها ، مقصورة على معاوية وعبد الملك وخلفاء بنى أمية وبنى مروان ، بل كان الأشراف والسادة والولاة يعقدون مثل هذه المجالس . فقد كان سعيد ابن العاص على المدينة ، فبينا هو يُعشّى الناس[٤] ، وهم يخرجون أوّلاً

= ضخمة تقطع منها الأعمدة للأخبية . وصف ظعناً ساقها سائق مجد ، فتعجب كيف أتيح لها هذا السائق المجد الحازم . وهذا مثل يضرب للرجل الحازم ، لأن الحرباء لا يفارق الغصن الأول حتى يثبت على الغصن الآخر .

(١) البيان والتبيين ٣ : ٩ .

(٢) ديوان حاتم — خمسة دواوين العرب — ١٢١ — ١٢٢ .

(٣) العقد ٦ : ١٢٥ ، وانظر أيضاً المزهر ٢ : ٣١٠ — ٣١١ .

(٤) الأغانى ٢ : ١٦٧ ، وانظر الشعر والشعراء ١ : ٢٨٤ .

أولاً ، إذ نظر على بساطه إلى رجل قبيح المنظر ، رثّ الهيئة ، جالس مع أصحاب سمره ، فذهب الشُّرَطُ يقيمونه ، فأبى أن يقوم ، وحانت من سعيد التفاتة ، فقال : دعوا الرجل . فتركوه ، وخاضوا فى أحاديث العرب وأشعارها مَلِيًّا ، فقال لهم الحطيئة ، — وكان هو ذلك الرجل — : والله ما أصبتم جيد الشعر ولا شاعر العرب . فقال له سعيد : أتعرف من ذلك شيئاً ؟ قال : نعم . قال : فمَنْ أشعر العرب ؟ قال : الذى يقول :

لا أَعُدُّ الإِقْتارَ عُدْمًا ولكنْ فَقْدُ مَنْ قَدْ رُزِئْتُهُ الإِعدامُ

وأنشدها حتى أتى عليها ، فقال له : من يقولها ؟ قال : أبو دُؤاد الإيادى . قال : ثم من ؟ قال : الذى يقول :

أَفْلِحْ بِما شِئْتَ فقدْ يُدْرَكُ بالْـ ـجَهْلِ وقد يُخْدَعُ الأَرِيبُ

ثم أنشدها حتى فرغ منها . قال : ومن يقولها ؟ قال : عَبيد بن الأبرص ، قال : ثم من ؟ قال : والله لَحَسَبك بى عند رغبة أو رهبة . . .

وأنشد ابن أبى عتيق يومًا قول قيس بن الخطيم[1] :

بيْنَ شُكُولِ النِّساء خِلْقَتُها حَذْوًا فَلَا جَبْلَةٌ وَلَا قَضَفُ

فقال : لولا أن أبا يزيد — كنية قيس بن الخطيم — قال « حذواً » ، ما دَرَى الناس كيف يحشون هذا الموضع .

وقال عبد الله بن جعفر بن أبى طالب لمعلم ولده[2] : لا تُروهم قصيدة عُروة بن الوَرْد التى يقول فيها :

دَعِينى للغِنَى أسعى فإنى رأيتُ الناسَ شَرُّهمُ الفَقِيرُ

---

(١) الأغانى ٣ : ١ — ٢ .

(٢) الأغانى ٣ : ٧٥ .

وكان يقول : إن هذا يدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم .

والأخبار عن معرفة ابن عباس بالشعر الجاهلى ، وروايته إياه ، وحضّه على طلبه وتعلمه وتفسير كتاب الله تعالى به ، أخبار كثيرة [١] ، حتى إنه كان يقول[٢] : إذا أشكل عليكم الشيء من القرآن فارجعوا فيه إلى الشعر فإنه ديوان العرب . وكان يُسأل عن القرآن فينشد الشعر . وسنكتفى بإيراد مثل واحد من أخبار ابن عباس ، وسيمرّ منها خبر أو خبران عند حديثنا عن معرفة عمر بن الخطاب بالشعر الجاهلى . قال الشعبى[٣] : كنا عند ابن عباس وهو فى صفة زمزم يفتى الناس ، إذ قال أعرابى : أفتيتَ الناس فافتنا . قال : هات . قال : أرأيت قول الشاعر المتلمس :

لِذِى الحِلْمِ قبلَ اليومِ ماتُقْرَعُ العَصَا وما عُلِّمَ الإنسانُ إلا لِيَعْلَمَا

قال ابن عباس : ذاك عمرو بن حُمَمَة الدَّوْسى ، قضى على العرب ثلاثمائة سنة ، فكبِر فألزموه السابع من ولده ، فكان معه ، فكان الشيخ إذا غفل كانت بينه وبينه أن تقرَع العصا حتى يعاوده عقله ، وذلك قول المتلمس اليشكرى من بكر بن وائل : لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا . قال ذو الإصبع العدْوانىّ بعد ذلك بدهر :

عَذِيرَ الحَىِّ من عَدْوا نَ كانوا حيَّةَ الأرضِ

. . . .

ومنهمْ حَكَمٌ يَقْضِى فلا يُنْقَضُ ما يَقْضِى

يعنى : عامر بن الظَّرِب .

* * *

(١) انظر مثلا مفصلا لذلك فى الإتقان للسيوطى ١ : ١٤٨ — ١٦٤ .
(٢) المبرد ، الفاضل : ١٠ .
(٣) السجستانى ، المعمرين : ٤٥ ، وانظر الفاضل للمبرد : ١٢ .

ونحن نرى من كل هذا ، ومن كثير غيره ، أن القوم ، فى القرن الأول الهجرى ، لم يكونوا يكتفون برواية الشعر الجاهلى وإنشاده فى المجالس والمحافل ، وإنما كانوا كذلك يعلمونه الصبيان تعليماً . وقد وضح لنا ذلك من قول عبد الملك لمؤدّب ولده يأمره أن يروّهم الشعر وخاصة شعر الأعشى ، ومن كتابة معاوية إلى زياد يطلب منه أن يعلم ابنه الشعر ويرويه إياه ، ومن نهى جعفر بن أبى طالب معلم ولده عن أن يعلمهم قصيدة عرْوَة بن الوَرْد لأنها تحض على الاغتراب عن الأوطان .

وسنذكر ، فى حديثنا عن طبقات الرواة ، ما يزيد هذا الجانب وضوحاً ، وذلك حينما نتحدث عن شعراء القرن الأول ورُجّازه : العجاج ورُؤْبة والأخطل وجرير والفرزدق والكميت ، ومعرفتهم بأخبار الجاهلية ، ومثالب العرب ومفاخرها ؛ وروايتهم الشعر الجاهلى ، بل نظرهم فيه نظر الناقد الحصيف المميِّز .

٣

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى صدر هذا القرن ، ونظرنا فى أخبار الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة ، بل أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدنا أن الأمر لا يختلف عما عهدناه فى عهد بنى أمية وبنى مروان .

قيل للحسن البصرى[1] : أكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمزحون ؟ قال : نعم ويتقارضون . — من القريض وهو الشعر .

وقال جابر بن سمرة[2] : جالست رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار فى المسجد وأشياء من أمر الجاهلية

---

(١) الفائق ٢ : ٣٣٩ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ١/٢ : ٩٥ — ٩٦ .

فربما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال أبو سلمة[١] : لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم متحزقين ولا متماوتين ، كانوا يتناشدون الأشعار ويذكرون أمر جاهليتهم ، فإذا أُريد أحدُهم على شيء من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون .

وسنعرض هنا أخبار بعض الصحابة — غير من ذكرنا — وروايتهم الشعر .

قال مطرِّف[٢] : خرجت مع عمران بن حصَين (صحابي) من الكوفة إلى البصرة ، فما أتى علينا يوم إلا ينشدنا فيه شعراً ، ويقول : إنّ لكم في المعاريض لمندوحةً عن الكذب .

ودخل غالب بن صعصعة على عليّ بن أبي طالب أيام خلافته — وغالبٌ شيخ كبير — ومعه ابنه همّام الفرزدق — وهو غلام يومئذ . فقال عليّ رضي الله عنه[٣] : . . . من هذا الغلام معك ؟ قال : هذا ابني . قال : ما اسمه ؟ قال : همّام وقد روّيته الشعر يا أمير المؤمنين ، وكلام العرب ، ويوشك أن يكون شاعراً مجيداً .

وهؤلاء أهل الكوفة لم يصرفهم ما كانوا فيه زمن عليّ عن رواية الشعر وإنشاده ، حتى قال لهم « إذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم حِلَقاً عِزين ، تضربون الأمثال ، وتناشدون الأشعار » .

وقد مر بنا خبر حسان حين طلب أن يُكتب شعرٌ قاله في الهجاء ، وتُوزَّع الصحف على الصبيان في المكتب ليتعلموه ويروه .

وكان أبو زُبيد الطائي شاعراً معمَّراً عاش خمسين ومائة سنة ، أدرك الإسلام ولم يسلم ومات نصرانياً . وكان عثمان بن عفان يقرّب أبا زُبيد ويدنّي مجلسه لمعرفته بسير من أدركهم من ملوك العرب والعجم ، فدخل عليه يوماً وعنده

---

(١) الفائق ١ : ٢٥٧ .
(٢) ابن سعد ٤/٢ : ٢٦ .
(٣) البغدادي ، خزانة الأدب ١ : ٢٠٦ .

المهاجرون والأنصار ، فتذاكروا مآثر العرب وأخبارها وأشعارها [١] .

وأما عمر بن الخطاب فأمر معرفته بالشعر وروايته له مشهور معروف ، فقد كان يستنشد من يحضر مجلسه فى حِلّه ، أو من يرافقه فى سفره . وكان ذوّاقة ، بصيراً بالشعر ، ناقداً له ، يحكم على الشعراء . وكان هو نفسه يحفظ كثيراً من الشعر الجاهلى ، حتى لقد قال محمد بن سلام عن بعض أشياخه [٢] : « كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر » .

ومن أمثلة ذلك أنه قيل له [٣] : « قيل للأوسية : أى منظر أحسن ؟ فقالت : قصور بيض فى حدائق خضر » . فأنشد عند ذلك عمر بن الخطاب بيت عدىّ ابن زيد العبادىّ :

كَدُمَى العاج فى المَحَارِيبِ أو كَالْـ بِيْضِ فى الرَّوْضِ زَهْرُهُ مُسْتَنِيرُ

وقال العائشى [٤] : كان عمر بن الخطاب — رحمه الله — أعلم الناس بالشعر ، ولكنه كان إذا ابتلى بالحُكم بين النجاشىّ والعجلانىّ (تميم بن أبىّ بن مقبل) ، وبين الحُطيئة والزبرقان ، كره أن يتعرض للشعراء ، واستشهد للفريقين رجالاً مثل حسان بن ثابت وغيره ممن تهون عليهم سِبالُهم ، فإذا سمع كلامهم حكم بما يعلم ، وكان الذى ظهر من حكم ذلك الشاعر مقنعاً للفريقين ، ويكون هو قد تخلص بعرضه سليماً . فلما رآه من لا علم له يسأل هذا وهذا ظنّ أن ذلك لجهله بما يعرف غيره .

قال : ولقد أنشدوه شعراً لزهير — وكان لشعره مقدّماً — فلما انتهوا إلى قوله :

وإنَّ الحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلَاثٌ يَمِينٌ أو نِفَارٌ أوْ جِلَاءُ

---

(١) ياقوت : إرشاد (حرملة بن المنذر) .
(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٤١ .
(٣) المصدر السابق ١ : ٤٥ .
(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ١ : ٢٣٩ — ٢٤١ .

قال عمر كالمتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها وإقامته أقسامها :

وإن الحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلَاثٌ يَمِينٌ أو نِفَارٌ أو جِلاءُ

يردد البيت من التعجب .

وأنشدوه قصيدة عَبْدَة بن الطبيب الطويلة التى على اللام ، فلما بلغ المنشدُ قوله :

والمرءُ ساعٍ لشىء ليس يُدْرِكُهُ والعَيْشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتَأْمِيلُ

قال عمر متعجباً : والعيشُ شحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ — يعجّبهم من حسن ما قسم وفصل .

وأنشدوه قصيدة أبى قيس بن الأسلت التى على العين ، وهو ساكت ، فلما انتهى المنشد إلى قوله :

الكَيْسُ والقُوَّةُ خَيْرٌ من الإ شْفاقِ والفَهَّةِ والهَاعِ

أعاد عمر البيت وقال :

الكَيْسُ والقُوَّةُ خَيْرٌ من الإ شْفاقِ والفَهَّةِ والهَاعِ

وجعل عمر يردد البيت ويتعجب منه .

وقال عمر بن الخطاب لابن عباس [1] : هل تروى لشاعر الشعراء ؟ قال ابن عباس فقلت : ومن هو ؟ قال : الذى يقول :

ولو أنَّ حَمْدًا يُخْلِدُ النَّاسَ أُخْلِدُوا ولكنَّ حَمْدَ الناسِ ليسَ بِمُخْلِدِ

قلت : ذاك زهير . قال : فذاك شاعر الشعراء . قلت : وبم كان شاعر

---

(١) الأغانى (دار الكتب) ١٠ : ٢٨٨ — ٢٩١ ، وانظر أيضاً ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١ : ٩٣ ، والزمخشرى ، الفائق ٢ : ١٦٥

الشعراء ؟ قال : لأنه كان لا يعاظل فى الكلام ، وكان يتجنبُ وَحشىّ الشعر ، ولم يمدح أحداً إلا بما فيه . . . ثم قال:أنشدنى له . قال ابن عباس : فأنشدته حتى برق الفجر .

وقال عمر بن الخطاب لبعض ولد هَرِم[1] : « أنشدْنى بعض مدْح زُهير أباك ، فأنشده . فقال عمر : إنه كان ليحسن فيكم المدح . قال : ونحن والله إن كنا لنحسن له العطية . قال : قد ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم . وفى رواية عمر بن شبة : قال عمر لابن زهير : ما فعلت الحُلل التى كساها هرمٌ أباك ؟ قال : أبلاها الدهر . قال : لكن الحُللَ التى كساها أبوك هرماً لم يبلها الدهر .

وقال عمر للوفد الذين قدموا عليه من غطفان[2] : من الذى يقول :

حَلَفْتُ فلم أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وليسَ وراء اللهِ للمرء مَذْهَبُ

قالوا : نابغة بنى ذبيان . قال لهم : فمن الذى يقول هذا الشعر :

أَتَيْتُكَ عاريًا خَلَقًا ثِيابى على وَجَلٍ تُظَنُّ بىَ الظُّنونُ
فألفيتُ الأَمانةَ لم تَخُنْها كذلك كان نوحٌ لا يخُونُ

قالوا : هو النابغة . قال : هو أشعر شعرائكم .

ومن أحكام عمر النقدية التى سارت وشاعت — غير حكمه المشهور على زهير — قوله حينما سئل عن الشعراء[3] « امرؤ القيس سابقهم ، خسف لهم عين

---

(١) البغدادى ، الخزانة ٢ : ٢٩٢ .

(٢) العقد ٦ : ١٢٠ — ١٢١ ، وانظر الأغانى (دار الكتب) ١١ : ٤ — ٥ .

(٣) الأغانى ٨ : ١٩٩ ، والفائق ١ : ٣٤٣ . افتقر : أنبط وأغزر . يريد أنه أول من فتق صناعة الشعر ، وفنن معانيها وكثرها وقصدها ، فاحتذى الشعراء على مثاله . وقد جعل للشعر بصراً صحيحاً . والمراد أن امرأ القيس قد أوضح معانى الشعر ولخصها وكشف عنها الحجب ، وجانب التمويص والتعقيد ؛ كأنه قال : فتح للشعر أصح بصر مجاوزاً للمعانى العور متخطياً لها .

الشعر ، فافتقرَ عن معان عُور أصحَّ بصرٍ » .

وكذلك كان أبو بكر راوية للشعر الجاهلى ، يتمثل به فى مواقفه ويستنشد الشعراء ما قالوه فى جاهليتهم وإسلامهم . فقد رَقِى أبو بكر المنبر يوماً ، وقال — فيما قال — يخاطب الأنصار[1] : . . . فنحن وأنتم كما قال الغنَوى :

جَزَى اللهُ عنا جعفرًا حين أزلقت ... بنا نعلُنا فى الواطئين فَزَلَّتِ
أَبَوْا أنْ يَمَلُّونا ، ولو كانتِ امُّنا ... تُلَاقِى الذى يَلْقَوْنَ منا لَمَلَّتِ
هُمُ أسْكَنُونا فى ظِلالِ بيوتِهِمْ ... ظِلالِ بيوتٍ أدْفأَتْ وأكَنَّتِ

واستنشد أبو بكر يوماً معديكرب — وقال[2] : أما إنك أول من استنشدته فى الإسلام . وهذا الخبر يقودنا إلى الحديث عما كان عليه أبو بكر قبل الإسلام : فقد كان عالماً من علماء النسب والأخبار ، بل لقد كان أعلم قريش بأنساب العرب ، حتى إن حساناً لما أراد أن يهجو قريشاً قال له رسول الله[3] : استعنْ بأبى بكر فإنه علامة قريش بأنساب العرب . فلما سمعت قريش بعد ذلك هجاءه قالوا[4] : إن هذا الشتم ما غاب عنه ابن أبى قُحافة . وقال بعضهم — ولم يكونوا علموا أن حساناً قاله[5] : لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا !

بل لقد كان منزل أبى بكر فى الجاهلية مثابةً لقريش يؤمونه لخَصْلتين : العلم والطعام ، فلما أسلم أسلم عامة من كان مجالسه[6] .

وقبل أن نتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستنشاده الشعر ، وإنشاد

---

(١) الصولى أدب الكتاب : ١٩٠ .
(٢) ابن سعد ٦ : ٥٧ .
(٣) جمهرة أشعار العرب : ٢٣ .
(٤) الأغانى ٤ : ١٣٨ ، والفائق ٢ : ٢٤٤ .
(٥) الأغانى ٤ : ١٣٨ .
(٦) البيان والتبيين ٤ : ٧٦ .

الصحابة والرواة بين يديه وفى مجلسه — نشير إلى ما يروى من أخبار عن غزارة حفظ أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر للشعر الجاهلى ، وتمثلها به ، واستنشادها إياه . والروايات كثيرة عن وفرة ما كانت ترويه من الشعر الجاهلى ، منها قولها عن نفسها [١] : إنى لأروى ألف بيت للبيد ، وإنه أقل ما أروى لغيره ! ! وقالت كذلك [٢] : لقد رويت من شعر كعب بن مالك أشعاراً منها القصيدة فيها أربعون بيتاً ودون ذلك .

وقد أنشدت عائشة — لما مات أخوها عبد الرحمن بن أبى بكر — متمثلة قصيدةً بائيةً لحجيَّة بن المُضَرِّب الكندى فى أخيه سعدان بن المضرب [٣] . ولما بلغها موت على بن أبى طالب أنشدت متمثلة شعراً للمعقِّر بن أوس بن حِمَّار البارقىّ [٤] .

وكانت أيضاً تحث على طلب الشعر وتعلمه وروايته ، ومما كانت تقوله فى ذلك [٥] : رَوّوا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم .

وكانت أسماء بنت أبى بكر — أخت عائشة — ممن يروَى عنها الشعر الجاهلى ، فقد روى عنها عُرْوة قصيدتين ، إحداهما لزيد بن عمرو بن نفيل ، والأخرى لوَرَقة بن نوفل [٦] .

وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يستنشد الصحابة الشعر [٧] ، ويسائلهم عنه ، ويستعيد ما يستحسنه منه ، ويبدى إعجابه ببعضه ، وقد ينهى عن رواية بعضه لأسباب مذكورة . فمما يدل على معرفتهم آنذاك بأخبار الجاهلية

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد ٦ : ١٢٥ .
(٢) السيوطى ، المزهر ٢ : ٣٠٩ .
(٣) المرزبانى ، معجم الشعراء ٢٣٤ .
(٤) المرزبانى ، المعجم ٢٠٤ .
(٥) العقد ٦ : ١٢٥ .
(٦) الأغانى ٣ : ١٢٤ — ١٢٥ .
(٧) انظر : المبرد ، الفاضل : ٩ — ١٠ .

وشعرائها أن رسول الله كتب لعُيينة بن حِصْن كتاباً ، فلما أخذ عيينة كتابه قال [١] : يا محمد ، أترانى حاملاً إلى قومى كتاباً كصحيفة المتلمس ؟

ومما يدل على استنشاده الشعر ومساءلته الصحابة الحاضرين مجلسه عنه ، ما رواه أنس بن مالك قال [٢] : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجلس ليس فيه إلا خزْرَجىّ ، ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم — يعنى قوله :

أَتَعْرِفُ رسمًا كاطِّرادِ المَذَاهبِ لِعَمْرَةَ وَحْشًا غيرَ موقفِ راكبِ

فأنشده بعضهم إياها ، فلما بلغ إلى قوله :

أُجَالِدُهُمْ يومَ الحَديقةِ حَاسِرًا كأَنَّ يَدِى بالسَّيْفِ مِخْراقُ لاعبِ

فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل كان كما ذكر ؟ فشهد له ثابت بن قيس بن شماس ، وقال له : والذى بعثك بالحق يا رسول الله ، لقد خرج إلينا يوم سابع عرسه عليه غلالة وملحفة مورسة فجالدنا كما ذكر .

وقال أبو وداعة [٣] : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضى الله تعالى عنه عند باب بنى شيبة ، فمر رجل وهو يقول :

يا أيها الرَّجُلُ المُحَوِّلُ رَحْلَهُ أَلَا نَزَلْتَ بآلِ عَبْدِ الدَّارِ
هَبَلَتْكَ أُمُّكَ لو نَزَلْتَ بِرَحْلِهِمْ مَنَعُوكَ مِنْ عُدْمٍ ومِنْ إقْتَارِ

فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى بكر فقال : أهكذا قال الشاعر ؟ قال : لا والذى بعثك بالحق ، لكنه قال :

يا أيُّها الرَّجُلُ المُحَوِّلُ رَحْلَهُ أَلَا نَزَلْتَ بآلِ عَبْدِ مَنَافِ

---

(١) الزمخشرى ، الفائق ٢ : ١٣ .
(٢) الأغانى ٣ : ٧ .
(٣) القالى ، الأمالى ١ : ٢٤١ .

هَبلَتْكَ أُمُّكَ لو نَزَلْتَ بِرَحْلِهِمْ مَنَعُوك مِنْ عُدْمٍ ومن إقْرافِ
الخالطينِ فَقِيرَهُمْ بغَنِيِّهم حتى يعودَ فقيرُهُمْ كالكافى
ويُكلِّلُون جِفانَهم بسَدِيفِهِم حتى تَغيبَ الشَّمْسُ فى الرَّجَّافِ [1]

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هكذا سمعتُ الرواة ينشدونه .

وقال عدىّ بن أبى الزغباء يوم بدْر [2] :

أنا عَدِيٌّ والسَّحْلْ أمشِى بها مَشْىَ الفَحْلْ

يعنى درعه . . . قال النبى صلى الله عليه وسلم « وما السحل » ؟ قال : الدرع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعمَ العدىّ عدى بن أبى الزغباء .

بل لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل ببعض هذا الشعر الجاهلى فقد كان إذا استراث الخبر يتمثل بعجز بيت طرفة [3] :

سَتُبْدِى لك الأيامُ ما كنتَ جاهلًا ويأْتيك بالأخبارِ من لم تُزَوِّدِ

ومن الشعر الجاهلى الذى كان ينشد بين يدى رسول الله فيستحسنه ، ما قالته عائشة [4] : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أتمثل بهذين البيتين :

ارْفَعْ ضَعِيفَكَ لا يَحِرْ بِكَ ضَعْفُه يومًا فتدركه العواقب قد نَمَا
يَجْزِيكَ أو يُثْنِى عليكَ ، وإنَّ مَنْ أثْنَى عَلَيْكَ بِما فَعَلْتَ فَقَدْ جَزَى

فقال صلى الله عليه وسلم : رُدّى علىّ قول اليهودى قاتله الله ، لقد أتانى جبريل برسالة من ربى : أيما رجل صنع إلى أخيه صنيعة فلم يجد له جزاء إلا الثناء عليه والدعاء له فقد كافأه .

---

(١) الرجاف : البحر .
(٢) الواقدى ، المغازى : ٦٠ .
(٣) معجم المرزبانى : ٢٠٣ ، وانظر الفاضل للمبرد : ٩ .
(٤) الأغانى ٣ : ١١٧ .

وقال مسلم الخزاعى [١] : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومنشد ينشده :

لاتَأْمَنَنَّ وإنْ أمْسَيْتَ فى حَرَمٍ حَتَّى تُلاَقِىَ ما يَمْنِى لَكَ المَانِى
فالخَيْرُ والشَّرُّ مقرونان فى قَرَنٍ بكلِّ ذلك يَأْتِيكَ الجَدِيدان

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لو أدرك هذا الإسلام !

وأنشد صلى الله عليه وسلم قول عنترة [٢] :

ولقد أَبِيتُ على الطَّوَى وأَظَلُّهُ حَتَّى أَنالَ به كَرِيمَ المَأْكَل

فقال صلى الله عليه وسلم : ما وُصِفَ لى أعرابىّ قطّ فأحببتُ أن أراه إلا عنترة !

وقال الشريد بن سُوَيد الثقفىّ [٣] : استنشدنى النبى صلى الله عليه وسلم شعر أمية بن أبى الصلت ، فأنشدته ، فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يقول : هيه هيه ، حتى أنشدته مائة قافية .

وأنشد النبى صلى الله عليه وسلم قول أمية [٤] :

الحَمْدُ للهِ مُمْسَانَا وَمُصْبَحَنَا بالخَيْرِ صَبَّحَنا رَبِّى وَمَسَّانا

(خمسة أبيات) فقال صلى الله عليه وسلم : إنْ كاد أميةُ ليسلم . وقال مرّة أخرى [٥] : آمن شعره وكفر قلبه .

---

(١) الفائق ٣ : ٥٢ يمنى : يقدر الله ، ومنه المنية . يريد : حين تلاقى ما يقدره لك الله . والبيتان لسويد بن عامر (انظر الزمخشرى فى الفائق ٣ : ٥٢) .

(٢) الأغانى ٨ : ٢٤٣ .

(٣) المزهر ٢ : ٣٠٩ نقلا عن البخارى فى الأدب المفرد ، وانظر ابن سعد ٥ : ٣٧٦ ، والخزانة ١ : ٢٢٧ نقلا عن صحيح مسلم . وقد وقع فى الخزانة « الرشيد » وهو خطأ ، صوابه « الشريد » .

(٤) الأغانى ٤ : ١٢٩ .

(٥) المصدر السابق ٤ : ١٣٠ .

وكان صلى الله عليه وسلم ينهى عن رواية بعض الشعرالجاهلى وإنشاده . فمن ذلك أنه لما بلغه صلى الله عليه وآله وسلم هجاءُ الأعشى علقمةَ بن عُلاثةَ العامرىّ نهى أصحابه أن يرووا هجاءه ، وقال : إن أبا سفيان شعَّث منى عند قيصر فردّ عليه علقمةُ وكذّب أبا سفيان [١]. ونهى كذلك عن إنشاد قصيدة الأفوه الأوْدىّ لما فيها من ذكر إسماعيل عليه السلام [٢] .

وكان أمية بن أبى الصلت يحرض قريشاً بعد وقعة بدْر ، وكان يرثى من قُتل من قريش فمن ذلك قوله [٣] :

ماذا بِبَدْرٍ والْعَقَنْـ قَلِ من مَرَازِبةٍ جَحَاجِحْ

وهى قصيدة نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن روايتها .

ويروَى أن رسول الله صلى الله عليه سمع كعب بن مالك بن أبى كعب الأنصارى ينشد [٤] :

ألا هل أتى غسَّان عنَّا ودونَنا من الأَرضِ خَرْقٌ غَوْلُهُ مُتَتَعْتِعُ
مُجَالَدُنَا عن جِذْمِنَا كلَّ فَخْمَةٍ مُدَرَّبَةٍ فيها القَوانِسُ تَلْمَعُ

فقال صلى الله عليه وسلم : لا تقل عن «جذمنا» وقل «عن ديننا». فكان كعب يقرأ كذلك ويفتخر بذلك ، ويقول : ما أعان رسول الله صلى الله عليه أحداً فى شعره غيرى .

---

(١) الفائق ١ : ٦٦٤ .

(٢) الميمنى ، الطرائف الأدبية: ٣ ؛ وهى قصيدة الأفوه التى أولها :

إن ترى رأسى فيـه نزع وشواى خلـة فيهـا دوار

ويهجو فيها بنى هاجر .

(٣) الأغانى ٤ : ١٢٢ — ١٢٣ . العقنقل : كثيب رمل ببدر . المرازبة : جمع مرزبان وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك . وجحاجح : جمع جحجح ، وهو السيد المسارع إلى المكارم .

(٤) المبرد ، الفاضل : ١٢ ؛ وانظر أيضاً ابن هشام ٣ : ١٣٩ .

ولقد كان إنشاد الشعر وروايته دأب العرب فى جاهليّهم القريبة المتصلة بمطلع الإسلام ، حتى حين كانوا — وهم مشركون — يحاربون رسول الله . فكانوا لا يكادون يجتمعون فى مجلس أو يضمهم نادٍ حتى يُزْجوا أوقاتهم بهذا الشعر ينشدونه . ومن أمثلة ذلك أن المشركين لما توجهوا « إلى بدر كان فتيان ممن تخلف عنهم سُمَّار يسمرون بذى طُوَى فى القمر ، حتى يذهب الليل ، يتناشدون الأشعار ويتحدثون »[1]. ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من لى بابن الأشرف؟..." خرج أبو نائلة سلكان بن سلامة إلى كعب ، فلما رآه كعب أنكر شأنه وكاد يذعر . . . فقال أبو نائلة : حدثت لنا حاجة إليك . . . فتحدثا ساعة وتناشدا الأشعار ، وانبسط كعب ، وهو يقول بين ذلك : حاجتك . وأبو نائلة يناشده الشعر . . »[2]

٤

وطبقة أخرى من العلماء هم النسابون ، وصلتهم بالشعر الجاهلى صلة واضحة ، إذ أن معرفتهم بالنسب كانت تقتضيهم معرفة واسعة بأخبار هؤلاء القوم وأشعارهم . وقد ذكرنا من قبل أن كتب القبائل كانت كتباً تتضمن أنساب العرب وأخبارهم وأشعارهم ، ونستطيع أن نتلمس ما ذكرناه تلمساً واضحاً فى كتب الأنساب التى كتبها النسابون فى العصور الإسلامية ، ولعل من أقدمها كتاب نسب قريش لأبى عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيرى المتوفى سنة ٢٣٦ هـ ، فإن فى هذا الكتاب — مع سلاسل النسب — أخباراً تاريخية وأدبية ، وشعراً يساق مع هذه الأخبار ويذكر مع تلك الأحاديث ، وكذلك كانت سُنَّة كتب النسب كلها التى سبقته فيما نرجح . ومما يدعم ذلك أننا نجد دائماً ذكر

---

(١) الواقدى ، المغازى : ٨٩ .

(٢) المصدر السابق : ١٤٦ .

علماء النسب مقروناً بذكر علمهم بالشعر وروايته ، وبأيام العرب وأخبارهم ، فقد قال الجاحظ عن علماء النسب[١] : « وأربعة من قريش كانوا رواة الناس للأشعار وعلماءهم بالأنساب والأخبار » . وقيل عن عقيل بن أبي طالب[٢] : « ويُجتمَعُ إليه فى علم النسب وأيام العرب » .

وسنذكر فى هذه الصفحات ، ذكراً موجزاً ، هؤلاء النسّابين الذين أخذ عنهم علماء القرن الثانى ، والذين عاشوا فى القرن الأول ، وفى صدر الإسلام ، وفى آخر العصر الجاهلى ، لنرى من ذلك — كما رأينا فى إنشاد الشعر الجاهلى وروايته — أن الصلة قائمةٌ فى العصور المتعاقبة ، وأنها كانت أشبه بالسلسلة ذات الحلقات المتصلة آخذاً بعضها برقاب بعض ، لم تنقطع ، ولم ينفرط عقدها ، ولم تكن ثمة فجوة تفصل بين أخبار الجاهلية وعلماء القرن الثانى ورواته .

فهذا هشام بن محمد بن السائب الكلبى — عالم الأنساب المشهور — يقول[٣] « قال لى أبى : أخذت نسب قريش عن أبى صالح . وأخذه أبو صالح عن عقيل بن أبى طالب . وأخذت نسب كندة عن أبى الكناس الكندىّ ، وكان أعلم الناس . وأخذت نسب معدّ بن عدنان عن النخّار[٤] بن أوس العذْرىّ ، وكان أحفظ الناس ممن رأيت وسمعت به . وأخذت نسب إياد عن عدىّ بن رئاث الإيادى ، وكان عالماً بإياد » .

وقد ذكر شعراء القرن الأول بعض هؤلاء النسابين ، ووصفوا ما كان مشهوراً من مدى علمهم بأخبار الجاهلية ، فمن ذلك قول سمّاك العكرمىّ[٥] :

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ٣٢٣ .

(٢) الصفدى ، نكت الهميان : ٢٠٠ .

(٣) ابن النديم ، الفهرست : ١٣٩ — ١٤٠ .

(٤) فى الأصل : « النجار بن أوس العدوانى » وهو خطأ صوابه ما أثبتناه من معجم المرزبانى ٢٣٧ ، ومن الحيوان ١ : ٣٦٥ و ٣ : ٢٠٩ — ٢١٠ وغيرهما .

(٥) البيان والتبيين ١ : ٣٢٢ — ٣٢٣ .

فَسَائلْ دَغْفَلًا وأخا هِلالٍ وحَمَّادًا يُنَبِّئُك اليَقِينَا[1]

وقال مسكين الدارمى [2]:

وعِندَ الكَيِّسِ النَّمَرِىِّ عِلمٌ ولو أَمْسَى بمُنْخَرِقِ الشَّمالِ

وقال ثابتُ قطنة [2]:

فما العِضَّانِ لو سُئِلا جَميعًا أخو بكرٍ وَزَيْدُ بنى هلالِ[3]
ولا الكلبىُّ حَمَّادُ بن بشْرٍ ولا مَنْ فَادَ فى الزَّمَنِ الخَوالى

وقال زياد الأعجم يهجو بنى الحبناء [2]:

بل لو سألتَ أخا رَبِيعَةَ دَغْفَلًا لوجدت فى شَيْبَانَ نِسبةَ دَغْفَلِ
إنَّ الأَحابنَ والذين يَلُونَهُمْ شَرُّ الأَنامِ ونَسْلُ عَبْدٍ أَغْزَلِ[4]

وقال القطامىّ [5]:

أحاديثُ من أنباء عادٍ وجُرْهُمٍ يُثَورُها العِضَّانِ زَيْدٌ ودَغْفَلُ

وقال عمرو بن المرادة البلوىّ يهجو النخّار بن أوس العذرى النسابة الراوية لأنه استلحق بطناً من بلىّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة وذكر أنهم من قومه [6]:

وقد كنتَ يا نَخَّارُ ما تَدَّعِيهمُ وتعرض عنهم فى السنين العوارقِ
يُمَنِّيهمُ النَّخَّار إلْحَاق نِسْبَةٍ بلَأْيٍ وما النَّخَّارُ فينا بصادقِ

---

(١) دغفل : هو دغفل بن حنظلة النسابة المشهور . أخو هلال : هو زيد بن الكيس ، وبنو هلال حى من النمر بن قاسط . وحماد : هو حماد بن بشر .
(٢) البيان والتبيين ١ : ٣٢٢ — ٣٢٣ .
(٣) العض : الداهية من الرجال . وفاد : هلك .
(٤) الأحابن : بنو الحبناء . والأغزل : الأقلف .
(٥) ديوانه : ٣١ .
(٦) المرزبانى ، معجم الشعراء : ٢٣٧ .

وحسبنا هذه الإشارة المقتضبة إلى نسابى القرن الأول ، فأخبارهم كثيرة مبسوطة فى مظانها[١] . وسننتقل إلى الحديث عن نسابى الصدر الأول ومن شهد منهم الجاهلية ، ونوجز كذلك الإشارة إليهم إيجازاً .

فمن أشهر هؤلاء : دغفل النسابة[٢] . ذكر الهيثم بن عدىّ فى « كتاب المثالب »[٣] أن أبا عمرو بن أمية — جد عُقبة بن أبى مُعيط — كان عبداً لأمية اسمه ذكوان فاستلحقه . وذكر أن دغفلاً النسابة دخل على معاوية ، فقال له معاوية : من رأيت من علية قريش ؟ فقال : رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس . فقال : صفهما لى . فقال : كان عبد المطلب . . . قال : فصف أمية . قال : رأيته شيخاً قصيراً نحيف الجسم ضريراً يقوده عبده ذكوان : فقال : مه ، ذاك ابنه أبو عمرو . فقال : هذا شىء قلتموه بعدُ وأحدثتموه ، وأما الذى عرفتُ فهو الذى أخبرتك به .

وقال معاوية يوماً لدغفل[٤] : بم ضبطتَ ما أرى ؟ قال : بمفاوضة العلماء . قال : وما مفاوضة العلماء ؟ قال : كنت إذا لقيت عالماً أخذتُ ما عنده وأعطيته ما عندى .

ويبدو أن القوم كانوا — على عهد عمر — مقبلين على تعلم النسب ، معنيين بدراسته ، وكانت العصبية القبلية ، والعصبية القومية العربية ، تحمل كثيراً منهم على أن يتخذ من علمه هذا وسيلة للطعن فى أنساب غيره ، ولذلك نهى عمر عن هذا الضرب من العلم ، أو عن هذا الضرب من التوسل بالعلم ، فقال[٥] :

---

(١) انظر مثلا البيان والتبيين ١ : ٣١٨ — ٣٢٤ ، والحيوان ١ : ٣٦٥ و ٣ : ٢٠٩ — ٢١٠ .

(٢) أخباره فى الفهرست : ١٣١ .

(٣) الأغانى ١ : ١٢ .

(٤) الزمخشرى ، الفائق ٢ : ٣٠٤ .

(٥) الفائق ٢ : ٣٨ .

أيها الناس ، إياكم وتعلم الأنساب والطعن فيها . والذى نفس عمر بيده لو قلت لا يخرج من هذا الباب إلا صَمَد ما خرج إلا أقلكم .

ومع ذلك فقد كان عمر يستعين بهؤلاء النسابين كلما احتاج إليهم فى أمر ، فحينما أراد أن يكتب الناس فى الديوان للعطاء دعا « عقيل بن أبى طالب ومخرَمة ابن نوفل وجبير بن مطعم ، وكانوا من نسابى قريش ، فقال : اكتبوا الناس على منازلهم ، فكتبوا ، فبدأوا ببنى هاشم » [١] .

ولما أُتِى عمر بسيف النعمان بن المنذر ، دعا جبير بن مطعم فسلمه إياه ، ثم قال [٢] : يا جبير ، ممن كان النعمان ؟ قال : من أشلاء قَنَص بن معدّ .

وجبير هذا معروف بعلمه بالنسب حتى قيل عنه إنه أنسب العرب ، وقد أخذ النسب عن أبى بكر الصديق ، وعن جبير أخذ سعيد بن المسيب [٣] .

بل لقد كان عمر نفسه عالماً بالنسب ، وقد أخذ علمه هذا عن أبيه الخطاب ، وكان كثيراً ما يقول [٤] : سمعت ذلك من الخطاب ، ولم أسمع ذلك من الخطاب .

وأما عقيل بن أبى طالب الذى ذكرناه فى خبر عمر حينما دعا النسابين ليكتبوا الناس على منازلهم ، فهو أخو علىّ ، وعقيل أسنُّ من على بعشرين سنة ، ومات فى زمن معاوية فى نحو سنة خمسين للهجرة . وكان عقيل من أنسب قريش وأعلمهم بأيامهم ، وكانت له طنفسة تطرَح فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يصلى عليها ، ويجتمع إليه فى علم النسب وأيام العرب [٥] . وكان عقيل أكثر النسابين ذكراً لمثالب الناس وتعداد مساويهم فعادَوْه لذلك ، وقالوا فيه وحمَّقوه [٦] .

---

(١) ابن سعد ٣/١ : ٢١٢ .
(٢) البيان والتبيين ١ : ٣٠٣ .
(٣) البيان والتبيين ١ : ٣٠٣ ، والفائق ١ : ٦٠٨ — ٦٠٩ .
(٤) البيان والتبيين ١ : ٣٠٤ .
(٥) نكت الهميان : ٢٠٠ .
(٦) البيان والتبيين ٢ : ٣٢٤ ، ونكت الهميان : ٢٠٠ .

وأما مخرمة بن نوفل فقد أسلم عام الفتح ، وتوفى بالمدينة سنة أربع وخمسين للهجرة ، وقد بلغ مائة وخمس عشرة سنة . وكان له سن وعلم بأيام قريش ، وكان أحد علمائهم ، ويؤخذ عنه علم النسب[١] .

ومن هؤلاء النسابين المعمَّرين : أبو جهم بن حذيفة بن غانم بن عامر « كان من مشيخة قريش عالماً بالنسب ، وصحب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان من معمرى قريش ، بنى فى الكعبة مرتين : مرة فى الجاهلية ومرة فى الإسلام ، حين بناها قريش وحين بناها ابن الزبير »[٢] .

ومن هؤلاء النسابين العلماء فى الجاهلية : الخطاب بن نفيل وأبوه نفيل بن عبد العزى الذى « تنافر إليه عبد المطلب وحرب بن أمية ، فنفَّر عبد المطلب — أى حكم له »[٣] .

ومنهم أيضاً الأقرع بن حابس ، وكانوا يحكِّمونه فيما يشجر من أمورهم ، وكان عالم العرب فى زمانه[٤] .

وقد مر بنا ذكر علم أبى بكر بالنسب ، وحثّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت أن يرجع إلى أبى بكر لمعرفة نسب قريش قبل أن يهجوهم . وقد كان بيت أبى بكر فى الجاهلية مجلساً عامًّا يقصده الناس لطلب العلم والقِرَى .

* * *

فنحن نرى إذن — مما قدمنا من الأمثلة والشواهد — أن رواية الجاهلية : أشعارها وأخبارها ، لم تنقطع منذ الجاهلية ، بل لقد اتصلت فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وخلفائه الراشدين ، واستمرت طوال القرن الأول حتى

---

(١) نسب قريش : ٢٦٢ ، ونكت الهميان : ٢٨٧ .
(٢) نسب قريش : ٣٦٩ .
(٣) البيان والتبيين ١ : ٣٠٤ .
(٤) النقائض : ١٤١ .

تسلمها العلماء الرواة من رجال القرن الثانى . ولم تكن ثمة فجوة تفصل هؤلاء الرواة العلماء عن العصر الجاهلى ، وإنما تلقفوه عمن تقدمهم ، وورثوه عمن سبقهم ، رواية متصلة ، وسلسلة محكمة ، يأخذها الخلف عن السلف ويروونها الجيل بعد الجيل ، حريصين عليها معنيين بها . ولم يشغلهم عن إنشاد الشعر وروايته ، وذكر أخبار العرب وأيامهم ومفاخرهم ومثالبهم ، فى مجالسهم ومحافلهم ، شاغل من حرب أو فتنة ، حتى لقد رأينا المسلمين الأولين ، والمشركين من كفار قريش ، لا ينقطعون عن إنشاد الشعر الجاهلى واستنشاده وروايته والتمثل به وتعلمه وحفظه . فأين هذا كله من قول ابن سلام وغيره إن العرب تشاغلت عن الشعر لما جاء الإسلام « وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر » .

ولا نحب أن نتأول كلام ابن سلام ، فألفاظه صريحة واضحة ، ولكننا نحسب أنه يقصد إلى أن الرواية العلمية المنظمة ، والضبط والتدقيق والتحرى ، وتدوين ذلك كله — لم يستطع العرب أن يتلمسوا إليه السبيل إلا بعد أن استقروا فى الأمصار . فإن كان ذلك هو قصده ، فلا ريب أننا لا نستطيع له دفعاً . وأما إذا كان يقصد ، كما يفهم من صريح ألفاظه ، مجرد رواية الشعر وإنشاده وحمله ونقله شفهياً ، فما قدمنا من أمثلة لا يتيح لنا أن نقبل دعواه . وسنزيد الأمر بسطاً حين نتحدث فى الفصل المقبل عن طبقات الرواة .

الفصل الثانى

طبقات الرواة

١

الشعراء الرواة :

أولى هذه الطبقات وأولاها بالتقديم طبقةُ الشعراء الرواة ، وهم — فيما يبدو لنا — طائفتان : شعراء يرْوُون ، فيما يروون ، شعر شاعر بعينه ، فيحفظون هذا الشعر ، ويتتلمذون للشاعر ، ويحتذون فيما ينظمون شعره ، واعين مقلدين فى بدء أمرهم ، ثم يصبح التقليد طبيعة وفطرة يصدرون عنها صدوراً فنيًّا . وبذلك تكتمل لدينا سلسلة من الشعراء الرواة يكون لهم من الخصائص الفنية التى تجمع بينهم ما يتيح لنا أن نسميهم « مدرسة شعرية » كما سماها الأستاذ الدكتور طه حسين[1] . وطائفة ثانية من هؤلاء الشعراء الرواة يرْوُون شعراً لمن سبقهم ولبعض من عاصرهم من الشعراء ، لا يخصُّون شاعراً بعينه يتتلمذون له ، وإنما يَرِدُون مناهل شتى يستقون منها ما شاء لهم الفن الشعرى أن يستقوا ، ثم يصدرون وقد اكتملت لهم شخصيتهم الفنية المستقلة .

وقد قسم النقاد الأقدمون الشعراء طبقات أربعة ، وجعلوا الطبقة الأولى المقدمة على سائر الطبقات : الشعراء الفحول ، وقد عرَّفوا الفحول بأنهم الشعراء الرواة[2] . وسنعرض أمثلة قليلة لكل من الطائفتين فيها غَناء عن الإكثار .

فأما الطائفة الأولى ، وهم الذين يتسلسلون فى نسق ، ويكونون مدرسة شعرية ، فمن أشهرها المدرسة التى تبدأ بأوْس بن حَجَر وتنتهى بكُثَيِّر . فقد كان زهير بن

---

(١) فى الأدب الجاهلى (ط . رابعة) ص : ٢٩٧ .

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٩ ، وانظر العمدة ١ : ٧٣ .

أبى سلمى راوية أوْس وتلميذه[١] ؛ ثم صار زهير أستاذاً لابنه كعب وللحطيئة[٢] ، حتى لقد قال الحطيئة لكعب بن زهير[٣] : « قد علمتم روايتى لكم أهلَ البيت وانقطاعى إليكم ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك ثم تذكرنى بعدك » . ثم جاء هُدْبة بن خَشْرَم الشاعر وتتلمذ للحطيئة وصار راويته[٤]. ثم تتلمذ جميل بن معمر العذْرى لهدْبة وروى شعره ، ثم كان آخر من اجتمع له الشعر والرواية كُثَيِّراً تلميذ جميل وراويته[٥] .

ولسنا فى سبيل دراسة الخصائص الفنية لهذه المدرسة الشعرية[٦] ، فحسبنا هذا العرض التقريرى الذى أورده النقاد الأقدمون ، وأقرّ به بعض هؤلاء الشعراء أنفسهم . ومع ذلك فإننا سنعرض لخصيصة واحدة تجلو لنا حقيقة الصلة بين تلامذة هذه المدرسة ؛ تلك هى : التأنى فى نظم الشعر وإعادة النظر فيه وتنقيحه ، حتى لقد قال الأصمعى[٧] : زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر ، لأنهم نقحوه ، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . وكان الحطيئة يقول : خير الشعر الحَوْلى المحَكَّك . وكان زهير يسمى كُبْرى قصائده الحوليات . وذكر كعب بن زهير فى شعر له هذه « العملية الفنية » فى نظم الشعر[٨] ،

---

(١) ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء : ٨١ ، وابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١ : ٨٦ . ومع ذلك فإنه يروى أنه كان لزهير أستاذ آخر هو خاله بشامة بن الغدير وأن زهيراً قد ورث شعر خاله بشامة ورواه عنه ، انظر الأغانى ١٠ : ٣١٢ ، والآمدى ، المؤتلف والمختلف رقم ٥٣٩ .

(٢) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١ : ٩٣ .

(٣) ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء : ٨٧ وابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ١٠٦ . وانظر أيضاً الأغانى ٢ : ١٦٥ .

(٤) الأغانى ٨ : ٩١ ، ولسان العرب (رتب) .

(٥) الأغانى ٨ : ٩١ .

(٦) لقد فصل القول فيها الدكتور طه حسين فى كتابه (فى الأدب الجاهلى) انظر ص: ٢٩٨ وما بعدها .

(٧) الشعر والشعراء ١ : ٢٣ .

(٨) انظر ديوانه ص : ٦٤ .

فأشار إلى أنه ينتقى ألفاظه وقوافيه انتقاء ، ويتنخلها تنخلاً ، ويثقّف شعره حتى تلين متونه ويستوى بين يديه على ما يحبّ . ومن هنا جاز أن تسمّى هذه المدرسة الشعرية مدرسة الصنعة [١].

ولم تكن الرابطة الفنية وحدها هى التى تجمع بين بعض هؤلاء الشعراء ، فقد ذكر لنا الرواة أن أوْساً كان زوج أم زهير [٢]، وكعب هو ابن زهير . وصلة الرحم هذه التى تربط بين أفراد المدرسة الفنية الواحدة ، تنقلنا إلى مدرسة أخرى : فقد كان المسيَّب بن عَلَس خال الأعشى بن ميمون، وكان الأعشى راويته وكان يطرُدُ شعره ويأخذ منه [٣] .

وكذلك كان أبو ذُؤَيب الهذَلىّ راويةً لساعدة بن جؤيَّةَ الهذَلىّ [٤] .

ولو تتبعنا هذه الصلة بين شعراء الجاهلية لوجدنا الكثير بن منهم ذوى رحم . ومن أشهر الأمثلة على ذلك — غير من ذكرنا — هؤلاء الثلاثة : المرقِّش الأكبر ، والمرقش الأصغر ، وطرفة بن العبد . فقد كان المرقش الأكبر عمّ الأصغر ، والأصغر عم طرفة [٥] . وكذلك كان مهلهل خال امرئ القيس . فلعل الأمر فى هؤلاء الشعراء قد جرى على ما جرى عليه الشعراء السابقون من أصحاب المدرسة الفنية الواحدة ، ولعل المرقش الأصغر كان راوية عمه المرقش الأكبر ، وطرفة راوية عمه المرقش الأصغر ، ولعل امرأ القيس كان كذلك راوية خاله مهلهل [٦].

والأمر بعد هذا يحتاج إلى دراسة فنية ، ليس هذا مجالها ، لشعر هؤلاء الشعراء حتى تنجلى لنا الأصول الشعرية التى قامت عليها كل مدرسة ومدى تأثر

---

(١) الدكتور شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (ط . ثانية) ص ١٣ — ١٥ .
(٢) ابن سلام : ٨١ .
(٣) الموشح : ٥١ ، والشعر والشعراء ١ : ١٢٧ .
(٤) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ٦٣٥ .
(٥) ابن سلام : ٣٤ ، ومعجم المرزبانى : ٢٠١ ، والأغانى ٦ : ١٣٦ .
(٦) ذكر ابن رشيق فى العمدة ١ : ٦١ (مطبعة السعادة سنة ١٩٠٧) أن امرأ القيس كان راوية أبى دواد الإيادى ، قال : « وكان امرؤ القيس يتوكأ عليه ويروى شعره » .

التلاميذ الرواة من هؤلاء الشعراء بأساتذة مدرستهم وشيوخها .

والطائفة الثانية هم الشعراء الذين لم يختصوا برواية شعر شاعر بذاته يتتلمذون له ، وإنما يروون لشعراء كثيرين يتتلمذون لهم جميعاً ، حتى يستقيم عودهم ، ويشقُّوا طريقهم الشعرى الذى يتفردون به ويتميزون . ولهذه الطائفة من الشعراء قيمة كبيرة فى بحثنا هذا ، إذ أنهم جميعاً ، فى أمثلتنا التى سنوردها — من شعراء القرن الأول الهجرى ، وهم جميعاً قد رووا الشعر الجاهلى وحفظوه وتمثلوا به ، بل لقد نقدوه وحكموا عليه وفاضلوا بين الشعراء الجاهليين . وقد اعتمد الرواة من علماء القرن الثانى أحكام هؤلاء الشعراء الرواة ورواياتهم للشعر الجاهلى وأخذوا عنهم. وبذلك يكون أولئك الشعراء الرواة الذين عاشوا فى القرن الأول الهجرى حلقة من السلسلة التى أشرنا إليها فى الفصل الأول حين تحدثنا عن اتصال الرواية الأدبية من الشاعر الجاهلى إلى علماء القرن الثانى .

فمن الشعراء الرواة فى القرن الأول : الطِّرِمَّاح . قال محمد بن سهل راوية الكميت [1] : أنشدتُ الكميت قول الطرماح :

إذا قُبِضَتْ نَفْسُ الطِّرِمَّاح أَخْلَقَتْ عُرَى المَجدِ واسْتَرْخَى عِنَانُ القَصائِدِ

فقال الكميت : إى والله وعنان الخطابة والرواية .

والكميت بن زيد هذا كان كذلك راوية عالماً بلغات العرب خبيراً بأيامها ومثالبها . ويقال : ما جمع أحد من علم العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها ما جمع الكميت ؛ فمن صحّح الكميت نسبه صحّ ، ومن طعن فيه وهن .

وكذلك كان رؤبة بن العجاج ، فقد أخذ عنه كثير من العلماء الرواة اللغةَ ، وكانوا كذلك يأخذون عنه رواية الشعر الجاهلى ونقدَه والحكم عليه .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٤٦ ، والشعر والشعراء : ٥٦٧ .

أخذ عنه يونس بن حبيب شرح قول امرئ القيس « صَفِرَ الوطابُ » [١] . وكان يونس يأخذ عنه كذلك الغريب ، فقال له رُؤْبة يوماً : حتى متى تسألني عن هذه الأباطيل وأزوِّقها لك ! أما ترى الشيب قد بلَّع فى رأسك ولحيتك ؟ وروى عنه أبو عمرو بن العلاء أبياتاً لامرئ القيس فاضل بينها ونقدها [٢] .

وكان ذُو الرمة راوية الراعى [٣] ، يروى شعره ويجعله إماماً [٤] ، وكان كذلك يؤخذ عنه بعض الشعر الجاهلى ، فقد أخذ عنه يونس بن حبيب قصيدة عبيد بن الأبرص الحائية التى يصف فيها المطر ، وجعلها يونس ، من أجل ذلك ، لعبيد ، وإنْ كان المفضل صرفها إلى أوْس بن حجر [٥] .

ومما يدل على معرفة ذى الرّمة بالشعر الجاهلى معرفة دقيقة ، وطول نظره فيه ، ما رُوى من أن حماداً الراوية قدم على بلال بن أبى بُرْدَة البصرةَ ، وعند بلال ذو الرمة ، فأنشده حماد شعراً مدحه به ، فقال بلال لذى الرمة [٦] : كيف ترى هذا الشعر ؟ قال : جيداً ، وليس له . قال : فمن يقوله ؟ قال : لا أدرى إلاّ أنه لم يقله . فلما قضى بلال حوائج حماد وأجازه . . . قال : أنت قلت ذلك الشعر ؟ قال : لا . قال : فمن يقوله ؟ قال : بعض شعراء الجاهلية ، وهو شعر قديم وما يرويه غيرى . قال : فمن أين علمَ ذو الرمة أنه ليس من قولك ؟ قال : عرف كلام أهل الجاهلية من كلام أهل الإسلام .

---

(١) ابن سلام : ٤٥ ، وبيت امرىء القيس هو :

وأفلتهن علباء جريضاً ولو أدركنه صفر الوطاب

(٢) الموشح : ٢٧ .
(٣) ابن سلام : ٤٦٧ .
(٤) الموشح : ١٧٠ .
(٥) ابن سلام : ٧٦ — ٧٧ .
(٦) الأغانى ٦ : ٨٨ .

فإذا ما انتقلنا بعد ذلك إلى الحديث عن جرير والفرزدق ، وجدنا فى الحديث عنهما ما يكشف عن مدى معرفة هؤلاء الشعراء بأخبار الجاهلية وأيامها ورواية شعرها . وعرفنا شيئاً آخر ذا قيمة خاصة ، وهو أن علماء القرن الثانى قد أخذوا بعض علمهم عن الجاهلية وشعرها عن هؤلاء الشعراء ، وخاصة جريراً والفرزدق .

فأما جرير فقد كان جدُّه الخَطَفَى ،واسمه حذيفة بن بدْر ، من القدماء العلماء بالنسب وأخبار العرب [١] ، وكان كذلك شاعراً وقد أدركه جرير وأخذ عنه [٢] . وروى أبو عبيدة عن مِسْحل بن زَيداء — وهى بنت جرير — عن أبيها جرير ، أخباراً عن أيام الجاهلية منها خبر عن يوم ذى قار [٣] ، وكذلك روى عنه نقداً مفصلاً لشعر بعض شعراء الجاهلية [٤] . وكان خلفاء بنى أمية يسألونه عن الشعراء : الجاهليين منهم والإسلاميين ، فيخبرهم بشعرهم وبنقده وأحكامه على هؤلاء الشعراء [٥] . فمن أمثلة ما كان يقوله : إن طرَفة — وقد كنى عنه بابن العشرين — أشعر الناس ، وإن زُهيراً والنابغة كانا ينيران الشعر ويسديانه ، وإن امرأ القيس اتخذ من الشعر نعلين يطؤهما كيف شاء . . .

وقد كان طلب جرير والفرزدق لأخبار الجاهلية وأنساب العرب مما يُضطران إليه ، ليضمِّناه شعرهما حين يهجوان وحين يمدحان ، ولذلك قال أبو عبيدة عنهما [٦] « هما بئس الشيخان ، ما خلق الله أشأم منهما على قومهما ، إنهما أخرجا مثالب بنى تميم وعيوبهم ، وكانا أعلم الناس بعيوب الناس » .

(١) البيان والتبيين ١ : ٣٦٦ .
(٢) طبقات فحول الشعراء : ٣١٩ — ٣٢١ .
(٣) النقائض : ٦٤٧ .
(٤) النقائض : ١٠٤٧ — ١٠٤٨ ، وانظر الأغانى ٨ : ١٩٩ — ٢٠٠ .
(٥) أمالى القالى ٢ : ١٧٩ .
(٦) النقائض : ١٠٤٩ .

أما الفرزدق فقد تعلم الشعر وروايته وكلام العرب صغيراً ، وهذا أبوه غالب ابن صعصعة حينما وفد على علىّ بن أبى طالب فى خلافته ومعه ابنه الفرزدق قال لعلىّ[١] : قد رَوّيتهُ الشعر يا أمير المؤمنين وكلام العرب ، ويوشك أن يكون شاعراً مجيداً . وقد كان بعد ذلك يطلب الأنساب والأخبار والمثالب ليضمّنها شعره حتى إنه حين قدم عمر بن لجأ التيمى البصرةَ خرج إليه الفرزدق ومعه راويته ابن مسويه ، وكان يكتب شعره ، فقال الفرزدق لابن لجأ[٢] : يا أبا حفص ، إن ابن عمى شبّةَ بن عقال كتب إلىّ أن بنى جعفر هجوه وهو مفحم ، وقداستغاث بى ، ولست أعرف مثالبهم ولاما يُهجَون به . قال عمر: لكنى قد طانبتهم فى الحال ، وسايرتهم فى النجع ، وحضرت معهم وبدَوْتُ . فقال الفرزدق : هاتوا لى صحيفة أكتب فيها ما أريد من ذلك . قال : فأتوه بصحيفة فكتب فيها المثالب التى هجاهم بها فى القصيدة التى يقول فيها :

ونبّئْتُ ذَا الأَهْدامِ يَعْوِى ودَونَهُ من الشأْمِ زَرّاعَاتُها وقُصُورُها[٣]

ويبدو أن الفرزدق كان كثير الرواية لشعر امرئ القيس حافظاً لأخباره ، ويعلل العلماء كثرة روايته لشعر امرئ القيس وأخباره بأن امرأ القيس صحب عمه شرَحبيل بن الحارث قبل يوم الكُلاَب ، وكان شرحبيل مسترضعاً فى بنى دارم رهط الفرزدق ، فلحق امرؤ القيس بعمه ، فلذلك حفظ الفرزدق أخباره[٤] . وبعض أخبار الفرزدق عن امرئ القيس متصلة إلى الجاهلية نفسها ، وربما إلى عصر امرئ القيس نفسه ، فالفرزدق يذكر أن جده قد حدّثه بها ، وجدّه شيخ كبير وهو يومئذ غلام حافظ لما يسمع[٥] .

---

(١) البغدادى ، الخزانة ١ : ٢٠٦ .

(٢) النقائض : ٩٠٧ — ٩٠٨ .

(٣) ذو الأهدام : اسمه نفيع ، وهو أحد بنى جعفر بن كلاب . وزراعاتها : الأرض التى تزرع منها .

(٤) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١ : ٧٠ — ٧١ ، وجمهرة أشعار العرب : ٨٥ .

(٥) المصدران السابقان .

وللفرزدق أحكام نقدية على الشعراء الجاهليين والمخضرمين أخذ بعضها الرواة العلماء وتناقلوها ، فمن ذلك حكم الفرزدق على نابغة بنى جعدة فى قوله [١] : كان صاحب خُلُقان عنده مُطرَفٌ بألف وحِمارٌ بواف .

وقد قال الجاحظ [٢] : إن الفرزدق راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم. وقال يونس بن حبيب : لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس . فهل أبلغ من هذا فى الدلالة على مبلغ علم الفرزدق بأيام العرب وأخبارهم وشعرهم؟ بل حسبنا أن نذكر الأبيات التالية التى قالها من قصيدته اللامية ، فإن ما فيها من تعداد لشعراء الجاهلية ، ولمح من أخبارهم ،ونقدات سريعة لشعرهم ، دالٌّ أبلغ الدلالة على معرفته بهؤلاء الشعراء وبشعرهم معرفة واضحة المعالم . قال الفرزدق [٣] :

وهَبَ القَصائدَ لِى النَّوابغُ إذْ مَضَوْا ... وأبو يزيدَ وذُو القُرُوحِ وجَرْوَلُ [٤]
والفَحْلُ عَلْقَمَةُ الذى كانت له ... حُلَلُ المُلوك ، كلامُه لا يُنْحَلُ
وأخو بنى قَيْسٍ وَهُنَّ قَتَلْنَه ... ومُهَلْهِلُ الشعراء ذاك الأوّلُ [٥]
والأَعْشَيَان كِلاهما ومُرَقِّشٌ ... وأخو قُضَاعةَ قَوْلُه يُتَمَثَّلُ
وأخُو بنى أَسَدٍ عَبِيدٌ إذْ مَضَى ... وأبو دُوَادٍ قَوْلُه يُتَنَحَّلُ
وابنا أبى سُلْمَى زُهَيْرٌ وابنُه ... وابن الفُرَيْعَةِ حِين جَدَّ المِقْوَلُ
والجَعْفَرِىُّ وكان بِشْرٌ قَبْلَهُ ... لِى من قصائدِه الكِتابُ المُجْمَلُ
ولقد وَرِثْتُ لآلِ أَوْسٍ مَنْطِقًا ... كالسَّمِّ خَالَطَ جانبَيْهِ الحَنْظَلُ

---

(١) الأغانى ٥ : ٢٨ والموشح : ٦٤ .
(٢) البيان والتبيين ١ : ٣٢٢ .
(٣) النقائض : ٢٠٠ — ٢٠١ وديوانه ص : ٧٢٠ — ٧٢١ .
(٤) النوابغ : النابغة الذبيانى والجعدى والشيبانى . وأبو يزيد : المخبل السعدى . وذو القروح : امرؤ القيس . وجرول : الحطيئة .
(٥) أخو بنى قيس : طرفة .

والحَارِثِيُّ أخو الحِماس وَرِثْتُه صَدْعًا كما صَدعَ الصَّفَاةَ المِعْوَل

ومما يدخل فى هذا الباب قصيدة سُرَاقةَ البارقىّ ، وهو معاصر لجرير والفرزدق ، ووجهُ الشبه بين القصيدتين فى تعداد أسماء الشعراء ، وذكر طرف من أخبارهم ونقد شعرهم — واضح بيّن. وقصيدة سُرَاقة التالية تدل على أن غير جرير والفرزدق من شعراء القرن الأول قد شركوهما فى العلم بشعراء الجاهلية ورواية شعرهم مما لا يبلغه إلا الرواة العلماء النقاد الدارسون لهؤلاء الشعراء وشعرهم . قال سراقة [١] :

ولقد أَصَبْتُ من القَرِيضِ طَرِيقَةً أَعْيَتْ مَصَادِرُهَا قَرِينَ مُهَلْهِلِ [٢]
بَعْدَ امْرِئِ القَيْسِ الْمُنَوِّهِ بِاسْمِهِ أَيَّامَ يَهْذِى بالدَّخُولِ فَحَوْمَلِ
وأَبُو دُوَادٍ كان شاعرَ أُمَّةٍ أَفْلَتْ نُجُومُهُمُ وَلَمَّا يَأْفِلِ
وأَبُو ذُؤَيْبٍ قد أَذَلَّ صِعَابَهُ (لاَ يَنْصِبَنَّكَ) رابِضٌ لم يُذْلَلِ
وَأَرادَها حَسَّانُ يَومَ تَعَرَّضَتْ بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ
ثُمَّ ابْنُهُ مِنْ بَعْدِهِ فَتَمَنَّعَتْ وإخَالُ أَنَّ قَرِينَهُ لم يَخْذُلِ
وبنو أَبِى سُلْمَى يُقَصِّرُ سَعْيُهُمْ عَنَّا كما قَصُرَتْ ذِراعَا جَرْوَلِ
وأَبو بَصِيرٍ ثَمَّ لمْ يُبْصِرْ بِها إِذْ حَلَّ من وَادِى القَرِيضِ بمَحْفِلِ
واذكُرْ لَبِيدًا فى الفُحُولِ وحاتِماً سَيَلُومُكَ الشُّعَرَاءُ إِنْ لَمْ تَفْعَلِ
ومُعَقِّرًا فاذْكُرْ وإِنْ أَلْوَى بِهِ رَيْبُ المَنُونِ وَطَائِرٌ بالأَخْيَلِ
وأُمَيَّةَ الْبَحْرَ الذى فى شِعْرِهِ حِكَمٌ كَوَحْيٍ فى الزَّبُورِ مُفَصَّلِ

---

(١) ديوانه — تحقيق حسين نصار — ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧، ص ٦٤—٧١
(٢) قرين الشاعر : شيطانه .

وَاليَذْمُرِيُّ على تَقَادُمِ عَهْدِهِ ... مِمَّنْ قَضَيْتُ له قضاءَ الفَيْصَلِ
واقْذِفْ أبا الطَّمَحَانِ وسْطَ خُوَانِهِمْ ... وابنُ الطِّرَامَةِ شاعرٌ لم يُجْهَلِ
لا والذى حَجَّتْ قُرَيْشٌ بَيْتَهُ ... لو شئتُ إذْ حَدَّثْتُكُمْ لم آتَلِ
ما نالَ بَحْرى مِنْهُمُ من شاعرٍ ... مِمَّنْ سمِعْتَ به ولا مستعجل[1]

٢

رواة القبيلة :

وقد سبق لنا قول مفصل عن قيمة الشعر الجاهلى وخطره للقبيلة [2] ؛ إذ هو ديوان أمجادها وأحسابها ، وسجل مآثرها ومفاخرها ، ومستودع آدابها وأنسابها وأخبارها . وأشرنا إلى عناية القبيلة بمدح الشعراء ، وحرصها على إكرامهم واستمالتهم وذكرنا كيف كانت القبيلة تحتفى إذا نبغ فيها شاعر : فتصنع الأطعمة ، وتجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعن فى الأعراس ، وتأتى القبائل فتهنئها [3]. ودللنا على مبلغ عناية القبيلة بالشعر بأنّ بنى تغلبَ كانوا يعظمون قصيدة عمرو بن كلثوم المعلقة ، وكان يرويها صغارهم وكبارهم حتى هُجُوا بذلك ، فقال بعض شعراء بكر بن وائل [4] :

أَلْهَى بنى تَغْلِبٍ عن كُلِّ مَكْرُمَةٍ ... قَصِيدَةٌ قالها عمرو بن كُلْثُومِ
يَرْوُونَها أَبَدًا مُذْ كَانَ أَوَّلُهُمْ ... يَا لَلرِّجَالِ لِشِعْرٍ غَيْرِ مَسْئُومِ

---

(١) مستعجل : كذا فى ديوانه المطبوع ، ولا أعلم لها وجهاً ، وقد وقف عندها محقق الديوان .
(٢) انظر الباب الثانى ، الفصل الأول ، فقرة (١) .
(٣) ابن رشيق ، العمدة ١ : ٤٩ .
(٤) الأغانى (دار الكتب) ١١ : ٥٤ .

ولذلك كانت القبيلة مصدراً من مصادر شعر شعرائها ، ومصدراً من مصادر الشعر الذى يمدحها به شعراء القبائل الأخرى . ومن أجل ذلك أخذ العلماء الرواة فى القرن الثانى بعض شعر الجاهلية من هذه القبائل ، ومما يرويه رواة منها من شعر شعرائها . وسنسرد بعض الأمثلة على رواية أفراد من القبيلة لشعر شعرائها ، مبتدئين بعصر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ومنتهين بآخر القرن الثانى .

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حينما أراد أن يسمع بعض شعر أمية بن أبى الصلت الثقفى ، استنشد رجلاً من ثقيف ، قبيلة الشاعر ، هو الشريد بن سُوَيد الثقفى ، فأنشده مائة بيت [١].

وحينما أراد عبد الملك بن مروان أن يسأل عن ذى الإصبع العَدْوانىّ وأخباره ونسبه ، وحينما أراد أن يسمع من ينشده قصيدته « عذير الحى من عدوان . . » سأل فى كل ذلك رجلاً من جديلة — وعدوان قبيلة ذى الإصبع بطن من جديلة فلما أجاب الرجل عن كل ذلك قال له عبد الملك [٢] : « ادْنُ منى ، فإنى أراك بقومك عالماً » .

وكذلك روى خراش بن إسماعيل عن رجل من بنى تغلب ثم من بنى عتّاب خبراً عن بنت مهلهل وابنها عمرو بن كلثوم ، وعمرو بن كلثوم من تغلب [٣] .

ويروى ابن الكلبى بعض أخبار حاتم عن أفراد قبيلته طيئ فيقول [٤] : « حدثنى الطائيون . . . »

وحينما دخل ثمامة بن الوليد على المنصور ، قال له المنصور [٥] : يا ثمامة ، أتحفظ حديث ابن عمك عرْوة الصّعاليك بن الوَرْد العبسى ؟ فقال : أىّ حديثه

---

(١) ابن سعد ٥ : ٣٧٦ ، وانظر المزهر ٢ : ٣٠٩ ، والخزانة ١ : ٢٢٧ .
(٢) الأغانى ٣ : ٩١ — ٩٣ .
(٣) الأغانى (دار الكتب) ١١ : ٥٢ .
(٤) ديوان حاتم (ط . لندن) ص : ٣٠ .
(٥) الأغانى ٣ : ٨٣ — ٨٥ .

يا أمير المؤمنين ؟ فقد كان كثير الحديث حسنه . فلما ذكر له المنصور الحديث قال ثمامة : إن له عندنا أحاديث كثيرة ما سمعنا له بحديث هو أظرف من هذا .

وإذا رجعنا إلى كتاب واحد من كتب الأدب العامة هو كتاب « المعمَّرين من العرب » لأبي حاتم السجستاني ، وجدنا كثيراً من أخباره مرويةً عن أشياخ من قبيلة المعمَّر الذي يترجم له ، فزهير بن جَنَاب من كلب ولذلك قال[1] : « حدثنا أبو حاتم قال — وقال العمري — أخبرني محمد بن زياد الكلبي عن أشياخه من كلب قالوا : . . » وقال أيضاً [2] : حدثنا أبو حاتم قال : وزعم هشام بن محمد عن أبيه محمد بن السائب قال : سمعت أشياخنا الكلبيين يقولون . . » ، وشُرَيح بن هانئ من بني الحارث بن كعب ، ولذلك أورد بعض أخباره عن [3] « ابن الكلبي عن أبي مِخْنَف قال : أخبرنا أشياخنا من بني الحارث قالوا . . . » . وشرية بن عبد جُعْفِيٌّ ، فأورد بعض أخباره عن [4] « ابن الكلبي قال : سمعت أبا بكر بن قيس الجعفيّ يذكر عن أشياخه ». ويورد بعض أخبار ثعلبة بن كعب الأوسي عن [5] « ابن الكلبي عن عبد الحميد ابن أبي عبس الأنصاري عن أشياخ قومه » . ويورد بعض أخبار طيِّئ بن أدَد عن [6] « هشام أنه سمع أشياخاً من طيِّئ يذكرون ذلك . . » ويروى بعض أخبار هاجر بن عبد العزى عن أحد أفراد قبيلته خزاعة هو : طلحة بن عبيد الله ابن كريز الخزاعي [7] . وكذلك يروى بعض أخبار جليلة بن كعب عن بعض

---

(١) كتاب المعمرين : ٢٥ .
(٢) ص : ٢٨ .
(٣) ص ٣٨ رقم : ٣٦ .
(٤) ص : ٣٩ رقم ٣٧ .
(٥) ص ٧١ — ٧٢ رقم ٧٣ .
(٦) ص : ٧٢ رقم ٧٤ .
(٧) ص : ٧٣ رقم ٧٦ .

أفراد قبيلته بنى جُعْفىّ هو : الوليد بن عبد الله الجُعْفى[١] . ويروى أخبار كعب ابن رداة النَّخعىّ عن بعض النخعيين[٢] . ويروى بعض أخبار حارثة بن عبيد الكلبى عن : شَمْلة بن مُغيث وهو رجل من ولد حارثة[٣] . ويروى بعض أخبار القُدّار العَنَزىّ عن[٤] : خِراش قال : حدّثنى به قوم من عَنَزَة .

ومع ذلك فقد كان بعض أفراد القبائل يجهلون أخبار شعرائهم ؛ وليس فى الأمر ما يستغرب ، فليس كل القبيلة معنيًّا بذلك ، وإنما العناية بهذا الضرب من العلم مما تغنى فيه معرفة طائفة دون أخرى ؛ غير أن ابن فارس يقول[٥] — ولعل فى قوله هذا استنكاراً واستهجاناً — : « سمعت أبى يقول : حججت فلقيت بمكة ناساً من هُذَيل ، فجاريتهم فى ذكر شعرائهم ، فما عرفوا واحداً منهم ، ولكنى رأيت أمثل الجماعة رجلاً فصيحاً وأنشدنى . . . » ثم يذكر أبياتاً .

فإذا كان أفراد القبيلة يعنون هذه العناية برواية شعر شعرائها ، فما بالك بأولاد الشاعر صَليبةً ؟ لقد كان ابن الشاعر يروى شعر أبيه حتى لقد قال الراعى:[٦] من لم يروِ من أولادى هذه القصيدة (قصيدته اللامية) وقصيدتى التى أولها :

بَانَ الأَحِبَّةُ بالْعَهْدِ الذى عَهِدُوا . . . . . .

فقد عَقَّنى .

وكثير من أبناء الشعراء الجاهليين عاشوا فى الإسلام[٧] ، وبعضهم عُمِّر

---

(١) ص : ٧٣ رقم ٧٧ .
(٢) ص : ٧٣ رقم ٧٨ .
(٣) ص : ٧٤ — ٧٥ ، رقم ٨١ .
(٤) ص : ٧٦ رقم ٨٤ وانظر كذلك رقم ٨٥ و٨٨ .
(٥) مقدمة الصاحبى، ص: ب و جـ
(٦) البغدادى ، الخزانة ٣ : ١٣١
(٧) من أمثلة ذلك : ابن عبيد بن الأبرص الأسدى ، وقد روى عن على بن أبى طالب (ابن سعد ٦ : ١٦٤) وعلى بن علقمة بن عبدة (الإصابة ٥ : ١١٢) ، والقاسم بن أمية ابن أبى الصلت الثقفى (معجم المرزبانى : ٣٣٢) ، وحية بنت وهب بن أمية بن أبى الصلت تزوجها =

طويلاً ؛ وقد وفد بعضهم على خلفاء بنى أمية فاستنشدوهم شعر آبائهم ، وأخذ العلماء الرواة بعض هذا الشعر عنهم . فمن أمثلة ذلك :

أن معاوية بن أبى سفيان حجّ فرأى شيخاً يصلى فى المسجد الحرام ، فسأل عنه فقالوا[١] : سَعْيَة بن غَرِ يض. فاستدعاه، فى حديث طويل ، ثم قال له: أنشدنى شعر أبيك يرثى به نفسه (أى شعر السموءل) فقال : قال أبى :

يَا لَيْتَ شِعْرِى حِينَ أُنْدَبُ هالِكًا ماذا تُوَبِّئُنِى بِهِ أَنْوَاحِى
أَيَقُلْنَ : لا تَبْعَدْ فَرُبَّ كَرِيهَةٍ فَرَّجْتَهَا بِشَجَاعَةٍ وَسَمَاحِ

وهى خمسة أبيات :

ويُروَى أن عدىّ بن حاتم الطائى عاش مائة وثمانين سنة[٢] ، وقد رووا عنه بعض أخبار أبيه حاتم[٣] .

ودخل إبراهيم بن متمم بن نويرة على عبد الملك بن مروان ، فرأى فيه عقلاً وفضلاً ، فقال له : أنشدنا بعض مراثى أبيك عمّك . فأنشده[٤] :

نِعْمَ الفَوارِسُ يَوْمَ نُشْبَةَ غادروا تحتَ التُّرَابِ قَتِيلَكَ ٱبْنَ الْأَزْوَرِ

حتى انتهى إلى قوله :

=عبد الله بن صفوان (نسب قريش : ٣٩٠) ، وعبد الرحمن بن حسان بن ثابت وابنه سعيد بن عبد الرحمن (معجم المرزبانى : ٣٦٦) ، وكعب بن زهير بن أبى سلمى وابنه عقبة بن كعب (الشعر والشعراء ١ : ٩٢) ، ومكنف وحريث ابنا زيد الخيل بن مهلهل وقد شهدا قتال الردة (الشعر والشعراء ١ : ٢٤٤) ، وإبراهيم وداود ابنا متمم بن نويرة . ووفد إبراهيم على عبد الملك ابن مروان (الشعر والشعراء ١ : ٢٩٨) وابن المتلمس ، كان اسمه عبد المنان أدرك الإسلام (الأغانى : ساسى ٢١ : ١٢٢) .

(١) الأغانى ٣ : ١٣٠ — ١٣١ .
(٢) المعمرين : ٣٦ .
(٣) ديوان حاتم (ط . لندن) : ٣١ .
(٤) الموشح للمرزبانى : ٢٤٠ .

أَدَعَوْتَه باللهِ ثُمَّ قَتَلْتَهُ لَوْ هُوَ دَعاك بِمِثْلِها لَمْ يَغْدِرِ

وأخذ الرواة العلماء شعر متمّم بن نويرة عن حفيده ابن داود بن متمم ، قال ابن سلاّم [١] : أخبرنى أبو عبيدة أن ابن داود بن متمم بن نويرة قدم البصرة فى بعض ما يقدم له البدوى فى الجَلَب والمِيرة ، فنزل النَّحيت ، فأتيته أنا وابن نوح العطاردى ، فسألناه عن شعر أبيه متمم وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته . فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار ويضعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التى ذكرها متمم ، والوقائع التى شهدها ، فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله .

وذكر الأصمعى أن حماد بن ربيعة بن النمر بن تَوْلَب قد روى [٢] :

أَهِيمُ بدَعْدٍ ما حَيِيتُ فإنْ أَمُتْ أَوَصٍّ بدَعْدٍ مَنْ يَهِيمُ بِهَا بَعْدِى

ونسبه إلى جدّه النمر بن تولب مع أن الناس يروون البيت لنُصَيب .

ودخل ابن أبى مِحْجن الثقفى على معاوية فقال له معاوية [٣] : أبوك الذى يقول :

إذا مِتُّ فادْفِنِّى إلَى جَنْبِ كَرْمَةٍ تُرَوِّى عِظامِى بَعدَ مَوْتِى عُرُوقُها
ولا تَدْفِنَنِّى بالفَلاةِ فإنَّنى أَخافُ إذا ما مِتُّ أنْ لا أَذوقها

فقال ابن أبى محْجن : لو شئتَ ذكرتَ أحسن من هذا من شعره . قال : وما ذاك ؟ قال : قوله :

لا تَسْأَلى النَّاسَ ما مالى وكَثْرَتُهُ وسائلى القومَ ما حَزْمى وما خُلُقى
القومُ أعلمُ أنى من سَراتِهِم إذا تَطِيشُ يدُ الرِّعْدِيدَةِ الفَرِقِ

(١) طبقات فحول الشعراء : ٤٠ .
(٢) الشعر والشعراء ١ : ٢٦٩ .
(٣) الشعر والشعراء ١ : ٣٨٨ .

قد أركبُ الهَوْلَ مَسْدُولًا عَسَاكِرُهُ وأَكْتُمُ السِّرَّ فيه ضَرْبَةُ العُنُقِ

ووفد على عبد الملك وفد أهل الكوفة ، فلما دخلوا عليه وكلمهم رأى فيهم رجلاً آدَمَ طويلاً ، فكلمه فأعجبه بيانه ، فلما تولى تمثل عبد الملك بقول عمرو ابن شأس[1] :

وإنَّ عِرَارًا إنْ يَكُنْ غَيْرَ واضحٍ فإنِّى أُحِبُّ الجَوْنَ ذا المَنكِبِ العَمَمْ

فالتفت الآدَمُ إلى عبد الملك فضحك ؛ فقال عبد الملك : علىّ به . فلما جيء به قال : ما أضحكك ؟ قال : أنا يا أمير المؤمنين عرار ! فأقعده وقدمه وسامره.

وقد أخذ العلماء بعض شعر تميم بن أبَىّ بن مُقبل عن ابنته أمّ شَرِيك، بل إنهم رووا عنها تفسيرها لكلمات فى شعره[2] .

وقد روى العلماء شعراً لعمرو بن العاص ، قال الواقدى[3] : أخبرنى ابن أبى الزناد أنه سمع ذلك من ابن ابنه : عمرو بن شعيب بن عبد الله بن عمرو يذكره لجده .

ولا سبيل إلى الإطالة فى إيراد الأمثلة فحسبنا ما قدمنا فإن فيه لغَنَاء .

٣

رواة الشاعر :

وقد كان لبعض الشعراء، وخاصة الفحول منهم ، راوٍ أو رواة ، يصحبونهم ويلازمونهم فى حِلِّهم وترحالهم ، ويحفظون شعرهم ويروونه وينشدونه فى المجالس والمحافل . وقد جرى أمر الشعراء ورواتهم فى العصور الإسلامية على ما جرى عليه

(١) الشعر والشعراء ١ : ٣٨٨ ، وانظر معجم المرزبانى : ٢١٢ – ٢١٣ .
(٢) البكرى ، معجم ما استعجم (أذرع) ١ : ١٣١ .
(٣) الأغانى ٩ : ٥٨ .

فى الجاهلية . فقد كان للفرزدق رواة أحدهم رجل من بنى ربيعة بن مالك — وهم الذين يقال لهم ربيعة الجُوع — ويبدو أن هذا الراوية كان يروى عامة شعر الفرزدق ، بينما كان راوية آخر لا يروى من شعر الفرزدق إلا ما كان هجاء أو نقضاً لقصائد جرير وغيره من الشعراء ، وكان اسم هذا الراوية عبيداً وهو أحد بنى ربيعة بن حنظلة [١] . وبقى لنا من أسماء رواة جرير اسم واحد هو الحسين ، وكان يكتب شعر جرير ، وروى عنه العلماء بعض أخباره [٢] . وكان السائب ابن ذَكْوَان راوية كُثَيِّر عزة[٣] . وأما راوية الكميت ابن زيد الأسدىّ فهو محمد بن سهل [٤] . وكان كذلك للأحوص راويته [٥] ، ولذى الرمة راويته [٦] . وربما اجتمع بعض هؤلاء الرواة يتناشدون أشعار شعرائهم ويتفاخرون بها ، كما حدث حين اجتمع بالمدينة راوية جرير ، وراوية نُصَيب ، وراوية كُثَيِّر ، وراوية جميل ، وراوية الأحوص ، وادَّعى كل رجل منهم أن صاحبه أشعر [٧] . ولسنا فى حل من الإسهاب فى الحديث عن هؤلاء الرواة فى العصر الأموى ، فأخبارهم مستفيضة ، وهى موجودة فى مظانها التى أشرنا إليها . وإنما ذكرناهم هذا الذكر العابر العارض ، لنستأنس به على أن رواة الشاعر كان أمراً موروثاً وعادةً موصولةً منذ الجاهلية ، وإنْ كانت كتب الأدب العربى وتاريخه تسعفنا بوفرة من الأخبار عن العصور الإسلامية ثم تشحُّ كلما استعنَّا بها فى العصر الجاهلى .

ومع ذلك فقد بقى لنا من أسماء رواة الشعراء الجاهليين اسم راوية الأعشى ، أو أسماء ثلاثة من رواته . أول هذه الأسماء : عبيد « وكان عبيد هذا يصحب

---

(١) النقائض : ١٠٤٩ ، والموشح : ١٠٦ — ١٠٧ .
(٢) النقائض : ٤٣٠ .
(٣) الأغانى ٩ : ٢٢٤ ، والموشح : ١٥٠ و ١٥١ .
(٤) الأغانى ٢ : ٤١٢ و ٤١٧ ، والموشح : ١٩٣ و ١٩٥ .
(٥) الأغانى ٤ : ٢٤١ — ٢٤٢ .
(٦) الموشح : ١٨٤ .
(٧) الموشح : ١٥٩ .

الأعشى ويروى شعره ، وكان عالماً بالإبل ، وله يقول الأعشى فى ذكر الناقة :

لم تَعَطَّفْ عَلَى حُوارٍ ولم يَقْـ ... ـطَعْ عُبَيْدٌ عُرُوقَها مِن خُمالِ[1] »

وقد روى عبيد هذا عن الأعشى نفسه خبر قدومه على النعمان وإنشاده بين يديه بعضَ شعره[2] . وروى أيضاً أنه سأله[3] : ماذا أردت بقولك :

وَمُدَامَةٍ مِما تُعَتِّقُ بابِلٌ ... كَدَمِ الذَّبِيحِ سَلَبْتُها جِرْيالَها

فقال الأعشى : شربتها حمراء ، وبُلْتها بيضاء [فسلبتها لونها][4] .

وقد ذكر أبو الفرج اسماً ثانياً لراوية الأعشى وهو : يحيى بن متى ، وقال عنه إنه[5] « كان نصرانياً عبادياً وكان معمَّراً. قال: كان الأعشى قدَرياً وكان لبيد مُثْبِتاً . قال لبيد :

من هَداهُ سُبُلَ الخَيْرِ اهْتَدَى ... ناعِمَ البالِ ومن شاء أَضَلّ

وقال الأعشى :

اسْتَأْثَرَ اللهُ بالوَفاءِ وَبالْـ ... ـعَدْلِ وَوَلَّى المَلَامَةَ الرَّجُلا

وحين سئل من أين أخذ الأعشى مذهبه، أجاب : « من قبل العبادين نصارى الحيرة ، كان يأتيهم يشترى منهم الخمر فلقّنوه ذلك » .

أما الجواليقى فى المُعَرَّب فقد ذكر اسماً ثالثاً لراوية الأعشى هو[6] : يونس ابن متى . ثم يورد الخبر الذى أوردناه آنفاً والذى سأل فيه هذا الراويةُ الأعشى عن معنى قوله : « سلبتها جريالها » .

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ٢١٦ . الحوار : ولد الناقة . والخمال : داء يصيب القوائم .

(٢) المصدر السابق ١ : ٢١٥ .

(٣) المصدر السابق ١ : ٢١٥ — ٢١٦ .

(٤) الزيادة بين المكفين من الجواليقى ، المعرب (ط . ليبسك) ص : ٤٦ .

(٥) الأغانى ٩ : ١١٢ ، وقد ذكره أبو الفرج فى موطن آخر (الأغانى — سامى ٢١ : ١٢٦) باسم : عبيد .

(٦) المعرب ص : ٤٦ ، وانظر أيضاً البغدادى ، الخزانة (سلفية) ٤ : ١٩٧ .

فنحن إذن أمام ثلاثة أسماء ؛ فهل هى لثلاثة رواة مختلفين ، أو أنه راوية واحد وأخطأ القدماء فى اسمه[١] ؟

أما نحن فنذهب إلى أن الأسماء الثلاثة كلها صواب ، ولكنها إنما تدل على رجل واحد لا ثلاثة رجال . وليس بين أيدينا الدليل القاطع ، وإنما ثمة أمران نستأنس بهما فيكون من ذلك ترجيحُ ما ذهبنا إليه . الأمر الأول أن الراوية الذى يروى عن هذا الراوية — راوية الأعشى — واحد فى جميع الروايات وهو سِمَاك بن حَرْب [٢] . فابن قتيبة يروى عن : . . حماد الراوية قال : حدثنى سماك عن عبيد راوية الأعشى ؛ ثم يقول فى موطن آخر : وحدثنى الرياشى عن مؤرِّج عن شعبة عن سمّاك عن عبيد راوية الأعشى ؛ وأبو الفرج يروى عن رجاله عن : أبان بن تغلب عن سماك بن حرب قال : قال لى يحيى بن متى راوية الأعشى . ويقول الجواليقى : رُوى عن الأصمعى عن شعبة عن سماك بن حرب عن يونس بن متى راوية الأعشى . فسماك بن حرب هو وحده الراوية الذى يروى عن راوية الأعشى الذى يدعى حيناً عبيداً ، وحيناً آخر يحيى ، وحيناً ثالثاً يونس . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الخبر الذى يورده ابن قتيبة مرويًّا عن : الرياشى مؤرج عن شعبة عن سماك عن عبيد راوية الأعشى ، هو الخبر نفسه الذى يورده الجواليقى مرويًّا عن الأصمعى عن شعبة عن سماك بن حرب عن يونس بن متى راوية الأعشى ، وهو سؤاله إياه عن معنى قوله « سلبتها جرياها » وتكاد ألفاظ الروايتين تكون واحدة — إذا أضفنا هذا إلى ذلك رجّحنا أن راوية الأعشى هو رجل واحد وليس ثلاثة رجال .

---

(١) ذهب الأستاذ أحمد محمد شاكر فى تحقيقه لكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (ص : ٢١٦ هامش : ١) إلى أن الجواليقى أخطأ فى اسم راوية الأعشى حينما ذكر أنه يونس بن متى .

(٢) ترجمته فى القفطى « إنباه الرواة على أنباه النحاة ٢ : ٦٥ وانظر تخريج ترجمته هناك فى الحاشية .

فكيف اختلفت الأسماء إذن ؟ لقد كان هذا الراوية عبّادياً من نصارى الحيرة ، فالغالب على ظننا أن يكون اسمه فى أصله : يوهانس أو يوحانس ، ثم مر هذا الاسم عند العرب فى طورين ؛ الأول : الترجمة ؛ والثانى : التعريب . فى الطور الأول ترجموا معنى اسمه الذى يدل على العبودية للخالق فجعلوه فى العربية : عبيداً . وأما طور التعريب فقد مر أيضاً فى مرحلتين ، الأولى : مرحلة حرفية لا تتغير عن الأصل كثيراً ، فعربوا يوهانس وجعلوه : يونس . وأما المرحلة الثانية فقد كانت مرحلة غير مباشرة ، وذلك أن يوحنا هو طور من أطوار هذا الاسم : يوحانس ، فجاء العرب فعربوا يوحنا وجعلوه يحيى .

فنحن إذن نرجّح ، لما فصّلناه من وجوه الرأى ، أن هذه الأسماء الثلاثة ، المختلفة فى ظاهرها ، ليست إلا اسماً واحداً فى حقيقتها ، يدل على راوية واحد بعينه .

٤

رواة مصلحون للشعر :

وليس هؤلاء الرواة — فيما يبدو لنا — طبقة خاصة قائمة بذاتها . فلم يكن من بين الرواة من نصب نفسه لإصلاح الشعر واختص بهذا الأمر واقتصر عليه . فقد يكون هؤلاء الرواة المصلحون للشعر : من الشعراء الرواة ، أو من رواة القبيلة ، أو من رواة الشاعر — وقد تحدثنا عنهم جميعاً — وقد يكونون من الرواة العلماء الذين سنتحدث عنهم بعد قليل . غير أن إصلاح الشعر موضوع قائم بذاته ، ومن هنا كان إفرادنا إياه فى طبقة خاصة توضيحاً للأمر وتفصيلاً لأقسامه .

وأول ما استرعى انتباهنا أننا رأينا رواة فى القرن الأول يصلحون بعض الشعر الأموى ؛ فمن ذلك أن شيخاً من هذيل — كان خالاً للفرزدق — دخل على رواة الفرزدق فوجدهم « يعدلون ما انحرف من شعره » ، ولما جاء رواة جرير وجدهم

كذلك « يقوّمون ما انحرف من شعره وما فيه من السِّناد »[١] .

ووجدنا الرواة يقولون[٢] : أخطأ ذو الرمة حيث يقول :

قَــلاَئِص ما تَنْفَكُّ إلا مُنَاخةً على الخَسْفِ أوْ نَرْمِي بِها بلدًا قَفْرا

ومن أجل ذلك غيَّره بعض الرواة « ممن يريد أن يحسِّنَ قوله » فجعلوه : آلاّ مناخة . وقالوا : إنما قاله ذو الرمة على هذا . وكان إسحق الموصلى ينشده : آلاّ ، ويقول : نحتال لصوابه[٣] .

وقال الأصمعى[٤] : قرأت على خلف شعر جرير فلما بلغت قوله :

فيا لكَ يوماً خَيْرُهُ قَبْلَ شَرِّه تَغَيَّبَ وَاشِيهِ وأَقْصَرَ عاذِلُهْ

فقال خلف : ويله ، وما ينفعه خير يؤول إلى شر ؟ فقال الأصمعى له : هكذا قرأته على أبى عمرو . فقال : صدقت وكذا قاله جرير ، وكان قليل التنقيح مشرَّد الألفاظ ، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا كما سمع . فقال الأصمعى : فكيف كان يجب أن يقول ؟ قال : الأجود له لو قال : فيالك يوماً خيره دون شره . فارْوِه هكذا ، فقد كانت الرواة قديماً تصلح من أشعار القدماء . فقال له الأصمعى : والله لا أرويه بعد هذا إلا هكذا .

فخلف إذن يعلم أن الرواة كانوا قديماً يصلحون من أشعار القدماء ! وهو فى أثناء حديثه يسوِّغ هذا الإصلاح إذا كان الشاعر « قليل التنقيح مشرد الألفاظ ». ومن هنا كان من العسير على الرواة ، فيما يبدو ، أن يجدوا فى شعر شاعر يتروَّى فى شعره ، وينقحه ويهذِّبه ، كزهير مثلاً ، ما يصلحونه له . ولذلك نرى من

---

(١) الأغانى ٤ : ٢٥٨ .
(٢) الموشح : ١٨٤ .
(٣) الموشح : ١٨٢ .
(٤) الموشح : ١٢٥ ، وانظر أيضاً العمدة ٢ : ١٩٢ — ١٩٣ ورد ابن رشيق على هذا التصحيح .

الأمثلة التى سنوردها أنها تدور على إصلاح شعر امرئ القيس وعَدِىّ ولبيد .

فقد قال امرؤ القيس[١] :

فلو أنَّها نَفسٌ تموتُ سَوِيَّةً ولكنَّها نفسٌ تَساقَطُ أَنْفُسَا

وقد وجد الرواة أن « سوّية » لا تقابل « تساقط أنفسًا » ومن هنا أرادوا أن يعدلوا عن هذا العيب ، عيب فساد المقابلات ، فغيَّروه ، وأبدلوا مكان « سوية » « جميعةً » لأنها فى مقابلة « تساقط أنفسا » أليقُ من « سوية » .

وكذلك قال امرؤ القيس[٢] :

فاليومَ أَشْرَبْ غيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إِثْماً مِنَ اللهِ وَلا وَاغِلِ

فقالوا . « قد حذف الشاعر الإعراب ، وليس بالحسن » . وذهبوا إلى أنه يريد « أشربُ » فحذف الضمة ؛ ولذلك غيَّروه ، فجعله بعضهم « فاليوم فاشرب » بصيغة الأمر .

وقال امرؤ القيس أيضاً ينوح على أبيه[٣] :

رُبَّ رَامٍ من بَنى ثُعَلٍ مُخْرِجٍ زَنْدَيْهِ مِنْ سُتَرِهْ[٤]

فلما أنشد الأصمعى البيت قال : أما علم أن الصائد أشدّ ختلاً من أن يُظهِر شيئاً منه ؟ ثم قال « فكفيه » — إنْ كان لا بدّ — أصلحُ . قال المازنىّ : فالأصمعى أصلحه : كفيه .

وقال عدىّ بن زيد العبادىّ[٥] :

---

(١) المرزبانى ، الموشح : ٨٥ .
(٢) المصدر السابق : ٩٥ .
(٣) المصدر السابق : ٢٨ .
(٤) فى رواية : متلج كفيه ؛ أى : مدخل .
(٥) المصدر السابق : ٢٢ .

فَفَاجَأَها وقد جَمَعَتْ جُمُوعاً على أبوابِ حِصْنٍ مُصْلِتِينا[1]
فَقَدَّمَتِ الْأَدِيمَ لِرَاهِشَيْهِ وَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِباً وَمَيْنا

وهذه هى الرواية الأولى، ولكن فى قوله « مَيْنا » سناداً ، ولذلك أراد المفضل الضبى أن يفرّ من هذا السناد فغيرها وجعلها « كذباً مُبِينا » .

وقال لبيد[2] :

أو مُذهَبٍ جُدَدٍ على أَلْواحِهِ أَلنَّاطِقُ الْمَبْرُوزُ والْمَخْتومُ

والكلمة الأولى من عجز البيت ألفها ألفُ وصل، ولكنها فى هذه الرواية قُطِعت « فعدل عن ذلك بعض الرواة استيحاشاً من قطع ألف الوصل » ، فغيروه ، وجعلوه :

« . . . . . على أَلواحهـــــن أَلنَّاطِق . . . . . »

وقال ابن مُقْبِل[3] : « إنى لأرسل البيوت عُوجاً فتأتى الرواة بها قد أقامتها » .

٥

رواة وضّاعون :

ومجال الحديث عن الوضع والنحل ذو سعة ، سنفرده فى بحث خاص ونفصّل القول فيه فى الباب التالى . غير أننا سنشير هنا إلى بعض الموضوعات التى كان

(١) يذكر خبر الزباء وغدرها بجذيمة الأبرش . الأديم: القطع . راهشيه : عرقى جذيمة الأبرش.
(٢) لسان العرب (ذهب) .
(٣) مجالس ثعلب : ٤٨١ .

يكثر فيها وضع الشعر الجاهلي ونحله ، ثم نورد عليها أمثلة من الرواة الوضّاعين ومن الشعر الموضوع .

وربما كان أوسع موضوع وجد فيه الرواة الوضاعون مجالاً فسيحاً للوضع والنحل هو القصص وأحاديث السمر . وقد كان خلفاء بني أمية وبني مروان ، وخاصةً معاوية وعبد الملك ، يعقدون مجالس خاصة للسمر والقصص . وقد مر بنا أن معاوية كان يستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها . . . . وأنه كان له غلمان مرتبون يقرأون عليه الأخبار والسير والآثار من دفاتر ، وكلوا بحفظها وقراءتها[١] . وكان أيضاً من محدِّثي معاوية وقصاصيه : النخار بن أوس ، ولم يكتف معاوية به بل أمره ذات ليلة أن يبغيه محدثاً غيره . فلما قال له النخار : ومعي يا أمير المؤمنين تريد محدثاً ؟ أجابه معاوية : نعم ، أستريح منك إليه ومنه إليك[٢] . ولما رأى عمرو بن العاص شغف معاوية بالمسامرة وأحاديث مَنْ مضى أشار عليه باستدعاء عبيد بن شَرِيَّة الجرهمي من الرَّقَّة ، وقال له إن عبيداً من بقايا من مضى ، وإنه أدرك ملوك الجاهلية ، وهو أعلم من بقي آنذاك في أحاديث العرب وأنسابها ، وأوصفهم لما مرّ عليه من تصاريف الدهر . فاستدعاه معاوية ، فصار عبيد في وقت السمر سمير معاوية في خاصته من أهل بيته . ثم أمر معاوية أهل ديوانه وكتّابه أن يوقّعوا هذه المجالس وأحاديثها ويدونوها في الكتب[٣] .

ولم يكن القصص والسمر وقفاً على بلاط الخلفاء الأمويين ، بل شاعت عند جمهور العامة ، وانتشر القصاص في المساجد يخلطون الوعظ بالقصص والأحاديث وأخبار من مضى من العرب وغيرها من الأمم ، يسوقونها للعظة والعبرة وللتسلية والسمر معاً . وأخبار هؤلاء القصاص في مساجد الأمصار كثيرة مبثوثة في مظانها[٤] . إنما يعنينا أن نشير إلى أمرين ، الأول : أن المتصدرين في المساجد

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ٢ : ٥٢ .
(٢) البيان والتبيين ١ : ٣٣٣ .
(٣) أخبار عبيد بن شرية : ٣١٢ – ٣١٣ .
(٤) انظر مثلا : ابن سعد ٦ : ١٨٠ ، ٢٠٠ ، ٧/١ : ١٢١ ، ٧/٢ : ٣٩ . والبيان =

لتفسير القرآن الكريم كانوا آنذاك يستطردون فى تفسيرهم إلى ذكر أخبار العرب فى الجاهلية . وأخبار سائر الأمم فى قصص وأحاديث . فقد كان أبو على الأسوارى مثلاً يقص فى البصرة فى مسجد موسى بن سيار الأسوارى ستًّا وثلاثين سنة « فابتدأ لهم فى تفسير سورة البقرة فما ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظاً للسير ، ولوجوه التأويلات ، فكان ربما فسر آية واحدة فى عدة أسابيع كأن الآية ذُكِرَ فيها يوم بدر ، وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق فى ذلك من الأحاديث كثيراً . وكان يقص فى فنون من القصص ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك »[1] . والأمر الثانى أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يكتفون بذكر الأخبار مجرَّدة ، وإنما كانوا يتمثلون فى وعظهم ، ويستشهدون على قصصهم ، بشعر جاهلى[2] .

ويبدو أن هؤلاء القصاص قد بدأوا قصصهم من عهد مبكر إذ يُذْكر أن أول من قصّ كان الأسود بن سريع التميمى ، وكان من الصحابة ، وكان يقول فى قصصه فى الميت[3] :

فإنْ تَنْجُ منها تنْجُ مِنْ ذِى عَظِيمَةٍ وإلاَّ فإنِّى لَا إخَالُكَ نَاجِيَا

فسرقه الفرزدق !

ولو وقفنا قليلا عند أخبار عبيد بن شَرِيَّة التى ذكرنا أنه ألقاها فى مجالس معاوية وسمره ، لوجدنا فيها كثيراً من الشعر الجاهلى . بعضه صحيح منسوب إلى

=والتبيين فى مواطن متفرقة كثيرة فى الجزء الأول ، منها من ص ٣٦٧ إلى ٣٦٩ ؛ وابن قتيبة ، المعارف : ٢٠٢ وغيرها .

(١) البيان والتبيين ١ : ٣٦٨ — ٣٦٩ .

(٢) انظر مثلا البيان والتبيين ١ : ١١٩ ، ففيه أن صالحاً المرى تمثل فى قصصه بالبيت :

فَبَاتَ يُرَوِّى أُصُولَ الفَسِيلِ فَعَاشَ الفَسِيلُ ومَات الرَّجُلْ

وتمثل الحسن فى قصصه بشعر لعدى بن الرعلاء الغسانى ، وتمثل عبد الصمد بن الفضل الرقاشى بأبيات للأسود بن يعفر .

(٣) المعارف (أوربا) : ٢٧٦ ، والبيان والتبيين : ٣٦٧ .

شعراء معروفين ، وهو محفوظ فى دواوينهم[١] . ولكن بعضه الآخر موضوع منحول لا شك فى وضعه ونحله ، من مثل الشعر الذى نسبه إلى يعرب بن قحطان[٢] ، وإلى عاد بن عوص[٣] ، وإلى ثمود وأخيه جديس[٤] ، وإلى عمليق وأخيه طسم[٥] ، وإلى حفدة عمليق وجديس[٦] . ومن مثل الشعر الذى قيل فى وفد عاد إلى مكة حينما ذهبوا يستسقون[٧] ، وما قاله لقمان فى نسوره السبعة[٨] . والأمثلة على ذلك كثيرة ، وهو كله شعر غثٌّ بارد وضع وضعاً لتزيين هذه القصص والخرافات . ويبدو أن هذا الشعر كان يكسب تلك القصص شيئاً من القيمة فى نفوس السامعين فيصبح موضع ثقتهم وتصديقهم ، بل لقد كان معاوية — فيما يورد كتاب أخبار عبيد — يسأل عبيداً : هل قيل فى بعض تلك الأخبار والقصص شعر ؟[٩] .

وإذا كان وضع الشعر ونحله فى مثل هذه القصص والخرافات أمراً لا غرابة فيه ، فإن العجب أن تصبح هذه القصص وما قيل فيها من شعر منحول مادةً تاريخية تضمّنها كتب السير والمغازى والتاريخ . ومن أجل ذلك تصدّى الرواة العلماء لهذه الأشعار فى الكتب التاريخية ونبّهوا على زيفها ونحلها . فنحن نجد فى كتاب السيرة لابن إسحق كثيراً من هذا الشعر المنحول الموضوع — على كثرة ما فيه أيضاً من الشعر الصحيح الثابت عند العلماء والرواة — فاستدركه عليه ابن

---

(١) مثل العباس بن مرداس ، وأعشى بنى وائل ، وحسان بن ثابت ، وأمية بن أبى الصلت ، وامرئ القيس ، وعبيد بن الأبرص ، والنابغة الذبيانى — انظر لذلك : حسين نصار . نشأة التدوين التاريخى ص : ١٩ .

(٢) أخبار عبيد ص : ٣١٦ .

(٣) ص : ٣١٧ .

(٤) ص : ٣١٨ .

(٥) ص ٣١٨ — ٣١٩ .

(٦) ص : ٣٢٠ .

(٧) ص : ٣٤١ — ٣٥٣ .

(٨) ص : ٣٥٦ — ٣٦٦ .

(٩) انظر مثلا ص : ٣٢٧ و ص : ٣٣٥ .

هشام، وأسقط كثيراً منه وبيَّن زيفه، وذكر نقْدَ العلماء له. وقد نبَّه ابن إسحق نفسه على ذلك ، فاعتذر عن إيراد مثل هذا الشعر المنحول بقوله[١] : « لا علم لى بالشعر ، أُوتَى به فأحمله » . وقد عقَّب ابن سلام على ذلك بقوله[٢] : « ولم يكن له ذلك عذراً ، فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة ، وليس بشعر ، إنما هو كلام مؤلَّف معقود بقوافٍ . أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر؟ ومن أدَّاه منذ آلاف من السنين ، والله تبارك وتعالى يقول : « فقطع دابر القوم الذين ظلموا » . أى : لا بقية لهم. وقال أيضاً : « وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى » . وقال : فى عاد : « فهل ترى لهم من باقية ؟ » وقال : « وقروناً بين ذلك كثيراً » وقال : « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم : قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ؟ »

ونقد ابنُ النديم ابنَ إسحق أيضاً فقال[٣] « ويقال : كان يُعمَل له الأشعار ويوتَى بها ويُسأل أن يدخلها فى كتاب السيرة ، فيفعل ، فضمَّن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر » .

وكذلك فعل الواقدى فى مغازيه ، فقد أدخل فيها بعض الشعر الموضوع ، وإن كان نبَّه على وضعه فى مواطن من كتابه ، فقد ذكر أن عباد بن بشر قال فى مقتل كعب بن الأشرف قصيدة عدّها ثلاثة عشر بيتاً أولها[٤] :

صَرَخْتُ به فلم يَحفِلْ لِصَوْتِى ... وَأَوْفَى طالعاً من فوق قَصْرِ
فَعُدْتُ ، فقال : مَن هذا المُنَادِى ... فقلتُ : أَخُوكَ عَبَّادُ بن بِشْرِ
فقال مُحَمَّدٌ أَسْرِعْ إلينا ... فقد جئنا لِتَشْكُرَنا وتَقْرِى

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٩ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) الفهرست : ١٣٦ .
(٤) المغازى : ١٤٩ .

وهى — فى رأينا — أبيات غثّة مرذولة لا شعرَ فيها ؛ وهذا الأسلوب القصصى أشبه بأسلوب شاعر الربابة الذى يعدّد الحوادث تعداداً منغّماً على أسلوب خاص . وقد ذكر الواقدىّ بعد أن أوردها أن ابن أبى حبيبة قال : أنا رأيت قائل هذا الشعر . فقال ابن أبى الزناد : لولا قول ابن أبى حبيبة لظننت أنها ثبت ! !

ونحن لا نقصد إلى أن نستقصى جميع الموضوعات التى كانت مجالاً للوضع والنحل ، ولكننا نشير إلى موضوع آخر غير القصص وأحاديث السمر ، وهو : الأنساب . وللنسب عند العربى قيمة وخطر ، ولذلك كان حريصاً على كل ما يثبت أنه عربى صريح أو أنه من القبيلة التى ينتسب إليها حقًّا . وكان بعض الرواة يتقربون إلى ذوى السلطان أو ذوى المال بوضع شعر منحول فيه إشارات إلى نسبهم . فمن ذلك أن قُضاعة من مَعَدّ ، ولكنها انتسبت إلى حمير ، « وزوّروا فى ذلك شعراً فقالوا[1] :

يَا أَيُّهـا الدَّاعى اَدْعُنَا وأَبْشِرِ ... وكُنْ قُضَـاعِيًّا ولاَ تَنَزَّرِ
قُضاعَةُ بنُ مالكِ بن حِمْيَرِ ... النَّسَبُ المعروفُ غيرُ المُنْكَرِ »

ومن ذلك أيضاً أنهم صنعوا أبياتاً يذكرون فيها نسب جُذام ولخم وعاملة ، ونحلوها أبا سمال الأسدىّ ، وهى[2] :

أَبلغْ جُذاماً ولَخْمًا إن عَرَضْتَ بهم ... والقومُ ينفعُهُمْ عِلْماً إذا عَلِمُوا
والقومُ عامِلةُ الأَثْرَيْنَ قُلْ لَهُمُ ... قَوْلاً سَتَبْلغهُ الوَسَّاجَةُ الرُّسُمُ
لأَنْتُمُ فى صَمِيمِ الحَقِّ إخْـوَتُنَا ... إذ يُخْلَقُ الماءُ فى الأَرحام والنَّسَمُ
لم أَرَ مثلَ الذى يأْتُونَ جاءَ بهِ ... قومٌ يُذَرُّ على مختومهم خُمَمُ

---

(١) أبو عبد الله المصعب الزبيرى ، نسب قريش : ٥ .
(٢) المصدر السابق : ٩ .

وقد عقب أبو عبدالله المصعب الزبيرى بعد أن أورد هذه الأبيات بقوله: « وقال بعض من يعلم : لما قدم خالد بن عبد الله القسرى أميراً على العراق ، ومعه قوم من جند الشأم ، فيهم من لخم وجُذام ، فأهدت لهم بنو أسد بن خُزَيمة ، فقالوا : أنتم قومنا ! وأحدثوا هذا الشعر ، إلا بيتاً منه : لم أر مثل الذى يأتون جاء به — فإنه قديم لا يُدْرَى لمن هو ؟ ولا من عُنِىَ به » .

وموضوع ثالث — غير القصص والأسمار وغير الأنساب — كان مجالاً واسعاً أيضاً للوضع والنحل هو أخبار أيام العرب فى الجاهلية . وهو موضوع يتصل بسابقيه اتصالاً وثيقاً ، وتكاد ثلاثتها تكون موضوعاً واحداً متصلاً ذا فروع مختلفة . فمن أمثلة وضع الشعر فى الأخبار ونحله للشعراء الجاهليين ليكون ذلك سنداً للخبر الذى يساق — ما أورد أبو عبيدة فى حديث البراجم قال[1] : قال عوف بن عطية التيمىّ يعيِّرُ لقيط بن زُرَارة أسْرَ بنى عامر معبدَ بن زُرارَة وفرارَ لقيط عنه :

هلَّا فَوارِسَ رَحْرحَان هجَوْتمُ ... عُشَرًا تَنَاوَحُ فى سَرارةِ وادِ
لا تأكلُ الإبِلُ الغِراثُ نَبَاتَهُ ... ما إنْ يقُومُ عِماده بِعِمادِ
هلَّا كَرَرْتَ على ابن أُمكَ مَعْبَدٍ ... والعَامِرِىُّ يقُودُه بِصِفَادِ
وَذَكَرْت من لَبَن المُحَلَّقِ شَرْبَةً ... والخيلُ تعْدُو فى الصعِيدِ بَدَادِ[2]

قال أبو عبيدة : وبقية هذه القصيدة مصنوعة .

وقال أبو عبيدة أيضاً فى يوم النِّسَار[3] : وأنشدونى فى تصداق ذلك (أن الأسود كان رئيس الرِّباب يوم النسار) قول عوف بن عطية بن الخَرِع التيمى :

---

(١) النقائض : ٢٢٨ .

(٢) العشر : شجر كبير له شوك . تتناوح : تتقابل . الغراث : الجياع . المحلق : إبل سمّها على هيئة الحلقة على أفخاذها . بداد : متفرقة .

(٣) النقائض : ٢٤٠ .

ما زال حَيْنُكُم ونَقْص حُلُومِكُمْ حَتَّى بَلَوْتُمْ كَيف وَقْعُ الأَسْوَدِ
وقبائلُ الأَحْلافِ وسْطَ بُيُوتِكُمْ يعْلُون هَامَكُمُ بكُلِّ مُهَنَّدِ

قال بنو أسد وغطفان : هذه مصنوعة ، لم يشهد الأسودُ النَّسارَ .

وحسبنا ما قدمنا فى هذا الموضوع ، ولنا إليه عودة فى الباب التالى عند حديثنا المفصل عن الشك فى الشعر الجاهلى .

٦

رواة علماء :

وهذا العنوان الفرعى لا ينفى العلم عن سائر طبقات الرواة التى قدمناها ؛ فقد كان بعض الشعراء الرواة علماء ، وكان بعض رواة الشاعر علماء ، وكان بعض رواة القبائل علماء ، وكان بعض الرواة المصلحين للشعر بل بعض الرواة الوضاعين علماء . غير أن علم أكثر رواة الطبقات الثلاث الأولى كان محدوداً محصوراً فى شعر شاعر بعينه أو فى شعر قبيلة بعينها ، وعلم أكثر رواة الطبقة الخامسة كان يدور على الموضوعات التى ذكرناها من قصص وأشعار وما يشبهها . ومن هنا قصدنا بهذا العنوان أن يدل على طبقة خاصة متميزة من الطبقات التى أشرنا إليها . ومدار تميزها وتفردها على أنها اتخذت من الشعر موضوعاً علمياً ، تدرسه دراسة ، وتأخذه عن شيخ أو أستاذ ، فى مدرسة من مدارس علم الشعر وروايته آنذاك ، ونعنى بها تلك المجالس والحلقات التى كانت تعقد فى المساجد أو منازل الشيوخ ، ويجتمع فيها التلاميذ من العلماء والمتعلمين ، يتحلقون حول شيخ شُهد له بالحفظ والرواية ومعرفة كلام العرب والإحاطة الواسعة بشعرهم ، وذلك بالاطلاع على ما سبق عصره من جهود الرواة فى حفظ الشعر وتدوينه . وتكون وسيلة الدرس مزدوجة تقوم على أمرين : على قراءة ديوان الشاعر

أو ديوان القبيلة والتلاميذُ يتابعون القراءة فى نسخ بين أيديهم أو يستمعون لمن يقرأ ؛ وعلى ما يلقيه الأستاذ الشيخ من تصحيح لبعض الأخطاء ، أو ذكرٍ لوجوه الروايات ، أو تفسير لغريب الألفاظ ، أو شرح للمعنى العام وذكر جوّه التاريخى وحوادثه وأخباره . وقد يضاف إلى هذين الرحلةُ إلى البادية أو الاستماع إلى من يفد منها من الأعراب .

ويبدو أن هذه الطبقة من الرواة العلماء — بهذا التعريف الذى قدمناه والتحديد الذى قيدناه به — لم تكن موجودة قبل مطلع القرن الثانى الهجرى ، وربما كان أولَ شيوخها الذين مهدوا الطريق لمن تبعهم فكانوا هم الرواد السابقين : أبو عمرو بن العلاء (المتوفى سنة ١٥٤) ، وحماد الراوية (المتوفى سنة ١٥٦) . ومن هنا كان قول ابن سلاّم[١] : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها : حماد الراوية » . ومن هنا أيضاً قالوا[٢] : « كان خلف الأحمر أول من أحدث السماع بالبصرة ، ذلك أنه جاء إلى حماد الراوية فسمع منه ، وكان ضنيناً بأدبه » . وقد أخذ عن هذين العالمين : أبى عمرو وحماد — سائرُ من نعرف من شيوخ العلم والرواية . كخلف الأحمر ، والمفضل ، والأصمعى ، وأبى عبيدة ، وأبى عمرو الشيبانى . وأخذ عن هؤلاء من تلاهم : كابن الأعرابى ، ومحمد بن حبيب ، وأبى حاتم السجستانى . ثم أخذ عن هؤلاء السكرى وثعلب وأضرابهما .

وقد انقسم هؤلاء الرواة العلماء إلى مدارس ، فكانت ثمة مدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة ، ومدرسة المدينة ، ومدرسة بغداد . وكان تلاميذ كل مدرسة وعلماؤها يتعصبون لمدرستهم ولشيوخهم ، ويوثّقون روايتهم ، ويجرّحون شيوخ المدرسة الأخرى ، ويضعّفون روايتهم ، ويتهمونهم بالوضع والنحل والكذب . وسنشير إلى هذه المدارس والخلاف بين شيوخها وتلامذتها ، وما نتج عن هذا الخلاف من طعن وتجريح وتضعيف — فى فصل تالٍ .

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٤٠ .

(٢) أبو البركات الأنبارى ، نزهة الألباء : ٣٧ .

ولو اقتصرنا فى إشارتنا إلى هؤلاء الرواة العلماء على كتاب واحد هو طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى — لوجدنا أن هذه الطبقة مميزة تمييزاً واضحاً يفرقها عن غيرها من الرواة ؛ فلا يكاد ابن سلام يذكر هذه الطبقة إلا يصفها بأنها « أهل العلم » . فمن ذلك قوله[١] : « وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىء منه . . . » ويقول[٢] : « وللشعر صناعة يعرفها أهل العلم » ، و « كذلك الشعر يعرفه أهل العلم به » . ويقول[٣] : « وكان أبو عبيدة والأصمعى من أهل العلم ، وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة : المفضل » . ويقول[٤] : « ثم إنا اقتصرنا بعد الفحص والنظر والرواية عمن مضى من أهل العلم » . ويقول[٥] : « أجمع أهل العلم أن النابغة لم يقل هذا » . ويقول[٦] : . « ولقد أخبرنى أهل العلم من غطفان » . ويقول[٧] : « كيف يروى خالد (بن كلثوم) مثل هذا وهو من أهل العلم ؟ » ويقول[٨] : « ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه قلة ما بقى بأيدى الرواة المصححين لطرفة وعبيد » .

وقد يقابل فى الجملة الواحدة بين هؤلاء الرواة المدققين من أهل العلم وبين الرواة عامةً من غير وصف يقيِّدهم . فهو يقول[٩] : « . . . ثم كانت الرواة

(١) ص : ٦ .
(٢) الصفحة السابقة .
(٣) ص : ٢١ .
(٤) ص : ٤٢ .
(٥) ص : ٥٠ .
(٦) ص : ٩٢ .
(٧) ص : ١٢٣ .
(٨) ص : ٢٣ .
(٩) ص : ٣٩ — ٤٠ .

بعدُ ، فزادوا فى الأشعار التى قيلت وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة وما وضعوا ، ولا ما وضع المولَّدون . . . » ويقول[1] : « وقد اختلف الناس والرواة فيهم (أى فى الشعراء) ، فنظر قوم من أهل العلم بالشعر ، والنفاذ فى كلام العرب والعلم بالعربية ، إذا اختلف الرواة ، فقالوا بآرائهم . . »

(١) ص : ٢١ .

الفصل الثالث

الإسناد فى الرواية الأدبية

١

بين الحديث والأدب :

لا يملك الباحث ، حين يتعرض للحديث عن الإسناد فى الرواية الأدبية ، إلا أن يشير إلى الإسناد فى رواية الحديث النبوى . وقد أشار أكثر الباحثين من المحدثين الذين أرّخوا الأدب العربى إلى العلاقة فى الإسناد وطريقة الحمل بين الروايتين[١] . وقد ذهبوا إلى أن رواة الأدب قد تأثروا رواةَ الحديث فى طريقة الإسناد ، ونسجوا على منوالهم . ولا نحب هنا أن نعيد أقوالهم ولا أن نشقق القول فى هذا الأمر بعينه ، ولكننا مع ذلك نكاد نذهب مذهباً يخالف ما ذهبوا إليه — فنحن نرى ، فيما يبدو لنا ، أن الرواية الأدبية أصل قائم بذاته ، وقد وجدت عند العرب منذ الجاهلية ، فكان علماء النسب الجاهليون ومن أدرك منهم الإسلام يأخذون علمهم بالنسب عن شيوخ هذا العلم ممن تقدمهم أو عاصرهم ، وكذلك كان رواة الشعر والأخبار الجاهلية .

وقد مرت بنا بعض الأمثلة على النسابين ورواة الأخبار والأشعار ، وستمر بعد صفحات أمثلة أخرى ، وربما كان أوضح ما يمثل تلقّىَ الشعر وأخذَه ما يروى من أن عمر بن الخطاب تمثل بشعر ثم قال لفرات بن زيد اللبثى[٢] :

---

(١) انظر مثلا : مصطفى صادق الرافعى ، تاريخ آداب العرب ١ : ٢٩٥ — ٢٩٨ .

(٢) الإصابة ٥ : ٢١٦ .

أتدرى من يقوله ؟ فقال فرات : لا أدرى يا أمير المؤمنين . قال عمر : هذا شعر أخيك قسامة بن زيد . قال : ما علمته . قال : بلى ، هو أنشدنيه وعنه أخذته .

والرواية سبيل طبيعية فى كل عصر وعند كل أمة ، حتى حين تنتشر الكتابة وتذيع . بينما كانت رواية الحديث أمراً طرأ على العرب بعد الإسلام . فإن لم تكن رواية الحديث من حيث الطور الزمنى متأثرة برواية الأدب وفرعاً منها ، فالروايتان أصلان انبثقا عن الحاجة الملحّة انبثاقاً طبيعيًّا .

وتفصيل ذلك أننا لا نعرف — على وجه الضبط واليقين — متى بدأ الإسناد فى رواية الحديث ، فنحن نرى مثلاً أن بعض التابعين لم يكن يُسند الحديث حين يحدّث .

فقد روى عاصم الأحول (المتوفى سنة ١٤٢ هـ) عن ابن سيرين (المتوفى سنة ١١٠ هـ) قال : لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، حتى وقعت الفتنة ؛ فلما وقعت الفتنة نظروا مَنْ كان من أهل السنّة أخذوا حديثه ، ومن كان من أهل البِدَع تركوا حديثه[1] .

وقال حماد بن سلمة[2] : كنا نأتى قتادة (هو قتادة بن دعامة السدوسى المتوفى سنة ١١٧) فيقول : بلغنا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وبلغنا عن عمر ، وبلغنا عن علىّ ، ولا يكاد يسند . فلما قدم حماد بن أبى سليمان البصرة جعل يقول : حدثنا إبراهيم وفلان وفلان ، فبلغ قتادة ذلك فجعل يقول : سألت مطرّفاً ، وسألت سعيد بن المسيب ، وحدّثنا أنس بن مالك ، فأخبر بالإسناد .

وقال ابن جريج[3] : إن عطاء حدث بحديث فقلت له : أتعزيه إلى أحد ؟ أى أتسنده ؟

---

(١) ابن حجر ، لسان الميزان (الهند) ١ : ٧ . وراجع رأى كايتانى ، المستشرق الإيطالى الذى ضمنه فى كتابه : السنويات الإسلامية — Annale Dell Islam وانظر كتاب الأستاذ أمين الخولى عن مالك ٣ : ٥٥٨ — ٥٦٧ .

(٢) ابن سعد ٢/٧ : ٢ .

(٣) الزمخشرى ، الفائق ٢ : ١٤٧ .

ولكننا نرى أن علماء القرن الثانى كانوا يسندون الحديث : يرفعون بعضه ، ويرسلون بعضه . ومما تجدر الإشارة إليه أن كثيراً من رواة الأدب كانوا كذلك من رواة الحديث ، وإن كانت شهرتهم بالرواية الأدبية قد طغت على شهرتهم برواية الحديث وغطت عليها . فالرواية عند هؤلاء العلماء فى القرن الثانى ، سواء أكانت رواية حديث أم رواية أدب وأخبار ، كانت ذات إسناد يرتفع حيناً إلى الصحابى وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — فى الحديث ، ويرتفع إلى من تدور عنه فى الجاهلية أو إلى رجال يروونها ممن شهدوا الجاهلية وشهدوا ما يروون بخاصة — فى الأدب والأخبار ، وكثيراً ما يكون الإسناد مرسلاً منقطعاً فى الروايتين كلتيهما .

ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نقول إن المتأخرين الذين كتبوا فى علوم اللغة والأدب قد احتذوا مناهج المحدثين والفقهاء ، وقلدوا علوم الحديث والفقه ، وذلك بعد أن نضجت علوم الحديث والفقه وأرسيت أصولها وقواعدها ، وعبدت سبلها وطرائقها ، وذهب فيها فى التحقيق والتدقيق — فى السند والمتن — مذاهب بعيدة[1] ونجد مثال ذلك عند أبى البركات ابن الأنبارى (المتوفى سنة ٥٧٥هـ) حين يقول فى كتابه « الإنصاف فى مسائل الخلاف »[2] : « فإن جماعة من الفقهاء المتأدبين ، والأدباء المتفقهين المشتغلين على بعلم العربية بالمدرسة النظامية . . . سألونى أن ألخص لهم كتاباً لطيفاً ، يشتمل على مشاهير المسائل الخلافية بين نحويى البصرة والكوفة ، على ترتيب المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة » .

وعند رجل كالسيوطى الذى يقول عن علم الأدب وتأليفه فيه[3] : « هذا

---

(١) قال الزركشى فى أول قواعده : كان بعض المشايخ يقول : العلوم ثلاثة : علم نضج وما احترق وهو علم النحو والأصول ، وعلم لانضج ولا احترق وهو علم البيان والتفسير ، وعلم نضج واحترق وهو علم الفقه والحديث . انظر : السيوطى ، الأشباه والنظائر فى النحو ١ : ٥ .

(٢) ص : ٣ .

(٣) السيوطى ، المزهر ١ : ١ .

علم شريف . . . حاكيت به علوم الحديث فى التقاسيم والأنواع » . ويقول كذلك[١] : « واعلم أن السبب الحامل لى على تأليف ذلك الكتاب الأول أنى قصدت أن أسلك بالعربية سبيل الفقه فيما صنفه المتأخرون فيه وألّفوه من كتب الأشباه والنظائر » .

فإذا كان الأمر على ما ذهبنا إليه ، فلمَ التزمتْ روايةُ الحديثِ الإسنادَ فى الغالب الأعمّ ، ولم تلتزمه الرواية الأدبية إلا فى القليل النادر ؟ ونحن نقصد بهذا التساؤل الإسناد المتصل المرفوع ، لا الإسناد المرسل المنقطع ، إذ أن هذا الضرب الثانى من الإسناد يكاد يكون ملتزماً فى رواية الأدب التزاماً لا إخلال فيه . فجميع ما يرويه علماء اللغة والأدب فى القرن الثالث والرابع ذو إسناد مرفوع إلى علماء القرن الثانى من أمثال أبى عمرو بن العلاء وحماد الراوية وخلف الأحمر والمفضل وأبى عمرو الشيبانى وابن الكلبى والأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد ، أو الأعراب الذين عاصرهم هؤلاء العلماء وأخذوا عنهم ، ولكن هذا الإسناد المرفوع إلى هؤلاء لا يكاد يصل إليهم حتى يقف عندهم ثم لا يعدوهم — إلا فى القليل النادر مما سنعرضه فى هذا الفصل بعد صفحات . ومن هنا كان هذا الإسناد الملتزم فى الرواية الأدبية إسناداً مرسلاً أو منقطعاً لأنه ، فى أكثره ، رُوىَ عن علماء لم يشهدوا العصر الجاهلى ، ولم يأخذوا الشعر من الشعراء الجاهليين أنفسهم .

ويبدو لنا أن مردّ التزام الإسناد المتصل فى رواية الحديث إلى أمرين : أمر داخلى ، وآخر خارجى . أما الداخلى فمبعثه من نفس الراوى ، ومصدره شعوره بالتحرج الدينى ، وذلك أنه ينقل كلاماً من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى قال فى حديثه المشهور : « من كذب علىّ فليتبوأ مقعده من النار[٢] » . فى الإسناد المتصل ما يجعل المحدث يطمئن إلى أن غيره من شيوخه وشيوخ

---

(١) السيوطى : الأشباه والنظائر فى النحو ١ : ٣ .

(٢) انظر نص الحديث كاملا وطرقه وتخريجه فى : الخطيب البغدادى (تقييد العلم ص ٢٩ — ٣٢) وهوامش الصفحات .

شيوخه ثم التابعين والصحابة يشتركون معه فى تحمل تبعة هذا الحديث ونقله ، وأنه لا يستقل وحده بحمل هذا العبء ، وأن تبعته لا تعدو النقل الأمين لما سمعه عن شيخ ثقة ثبت .

وأما الأمر الخارجى فرجعه إلى سامعى الحديث من المحدِّث ، وذلك أن الحديث يتضمن جزءاً كبيراً من السنَّة ، أو هو السنة كلها ، وهو من أجل ذلك مصدر من مصادر التشريع الإسلامى ، بل إنه هو المصدر الثانى الذى يتلو فى القيمة كتاب الله ، ولذلك كان من التدقيق والتحقيق ، ومما يبعث الطمأنينة فى نفوس السامعين ويوحى إليهم بالثقة فى حديث المحدث — أن يصل بين عصره وعصر الرسول الكريم بسلسلة متصلة من الرواة المحدِّثين كلهم يشهد أنه سمعه ممن قبله حتى يصل الإسناد إلى الصحابى فالرسول .

من أجل هذا كله رأينا كثيراً من الصحابة ومن التابعين يتحرجون من رواية الحديث ، بل لقد ورد عنهم نهى صريح عن التحديث والإكثار منه . فقد شيع عمر بن الخطاب جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا ذاهبين إلى الكوفة ، ثم أوصاهم بقوله[1] : « إنكم تأتون أهل قرية لهم دويٌّ بالقرآن كدويّ النحل ، فلا تصدُّوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جرِّدوا القرآن ، وأقلُّوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، امضوا وأنا شريككم » . وقال شعبة بن الحجاج (توفى سنة ١٦٠ وله ٧٥ سنة)[2] « ما أنا مغتم على شيء أخاف أن يدخلنى النار غيره » — يعنى الحديث . ومن أجل هذا أيضاً كان كثير من المحدِّثين من الصحابة والتابعين يتخفَّفون من أعباء هذا الحرج وقسوته باللجوء إلى الشعر وإنشاده . قال مطرِّف[3] : « خرجت مع عمران بن حصين (صحابى توفى سنة ٥٢) من الكوفة إلى البصرة فما أتى علينا يوم إلا ينشدنا فيه شعراً ، ويقول :

---

(١) ابن سعد ٦ : ٢ .
(٢) ابن سعد ٢/٧ : ٣٨ .
(٣) المصدر السابق ٢/٤ : ٢٦ .

إن لكم فى المعاريض لمندوحة عن الكذب » .[١] وقال روح بن عبادة[٢] : كنت عند شعبة ، فضجر من الحديث ، فرمى بطرفه ، فرأى أبا زيد سعيد بن أوس فى أخريات الناس فقال : يا أبا زيد :

واسْتَعجَمَتْ دارٌ مَىٍّ ما تُكلِّمُنا والدارُ لو كَلَّمَتْنا ذاتُ أخْبار

إلىّ يا أبا زيد . فجعلا يتناشدان الأشعار . فقال بعض أصحاب الحديث لشعبة : يا أبا بسطام نقطع إليك ظهور الإبل لنسمع منك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فتدعنا وتقبل على الأشعار ! ! قال : فرأيت شعبة قد غضب غضباً شديداً ثم قال : يا هؤلاء ، أنا أعلم بالأصلح لى ، أنا والذى لا إله إلا هو فى هذا أسلم منى فى ذاك .

ومن أجل هذا أيضاً كان الأصمعى يتحرج فى تفسير شىء ورد فى القرآن الكريم أو الحديث ولذلك « لم يرفع من الحديث إلا أحاديث يسيرة »[٣] .

ونحن نرى من هذه الأخبار الثلاثة الأخيرة أن القوم آنذاك لم يكونوا يرون فى رواية الشعر ما يرونه فى رواية الحديث ، فالشعر آخِرَ الأمر شأن من شؤون هذه الدنيا لا يتصل بالدين ولا بشخص الرسول ولا يمتُّ بسبب إلى التشريع . فهم إذن فى حلٍّ إذا وجدوا فيه سعة يستريحون فيها من عناء التضييق الذى كانوا يأخذون به أنفسهم فى الحديث .

فهل نحن إذن على صواب إذا ذهبنا إلى أنه ليس فى الرواية الأدبية للشعر الجاهلى والأخبار الجاهلية إسناد متصل؟ لعلنا لا نستطيع أن نقطع فى هذا السؤال

---

(١) عمران بن حصين هذا هو الذى يقول : والله إن كنت لأرى أنى لو شئت لحدثت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يومين متتابعين ، ولكن يطأنى عن ذلك أن رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعوا كما سمعت ، وشهدوا كما شهدت ، ويحدثون أحاديث ما هى كما يقولون ، وأخاف أن يشبه لى كما شبه لهم .

(٢) نزهة الألباء : ٨٩ — ٩٠ ، وانظر أيضاً ابن سعد ٢/٧ : ٣٨ .

(٣) أبو الطيب اللغوى ، مراتب النحويين ورقة : ٧٤ .

بجواب حاسم قبل أن نعرض بعض ما لدينا من أخبار وروايات فيها إسناد متصل إلى الجاهلية وسنكتفى الآن بالعرض المجرد ثم نعقب على ذلك بما يبدو لنا من رأى.

وهذه الأخبار والروايات قسمان كبيران ؛ أولهما : يتصل بالشاعر الجاهلى نفسه ، وثانيهما : يتصل بهؤلاء العلماء الرواة الذين عاشوا فى القرن الثانى وأخذ عنهم العلماء بعد ذلك شعر الجاهلية وأخبارها .

٢

أما القسم الأول فهى أخبار مسندة يرتفع إسنادها إلى الشاعر الجاهلى نفسه ، وأكثر الشعراء الجاهليين حظًّا من هذا الضرب من الروايات المسندة هو حسان ابن ثابت ، وربما كان مردُّ ذلك إلى صلة حسان برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فروى بعض الصحابة شعره وأخباره . ونحن نجد مثل هذا الضرب من الأسانيد المرفوعة إلى الصحابة عن حسان فى ترجمته فى الأغانى[١] ، كالذى ترويه أم المؤمنين عائشة[٢] ، وأختها أسماء بنت أبى بكر[٣] . أما الأحاديث المرفوعة فى إسناد متصل إلى حسان نفسه فهى أقل من ذلك عدداً . ومن أمثلتها ما جاء فى إسناد متصل أوله أبو الفرج الأصفهانى وآخره سعيد بن زرارة عن حسان بن ثابت ، حيث يذكر ما يدل على أنه ولد قبل الهجرة بنحو من ستين سنة وأنه كان غلاماً يفعة ابن سبع سنين أو ثمان حينما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم[٤] .

وثمة أخبار أخرى ذات إسناد منقطع ولكنها تنتهى بحسان يروى فيها خبراً عن

---

(١) ج : ٤ ، ص ١٣٤ — ١٧٠ .
(٢) المصدر السابق : ١٤٣ و ١٤٦ .
(٣) المصدر السابق : ١٤٤ .
(٤) المصدر السابق : ١٣٥ .

نفسه وعن غيره من شعراء الجاهلية . ومن أمثلة ذلك « . . . حدثنا الزبير بن بكار قال ، قال أبو غُزيَّة ، قال حسان بن ثابت : قدم النابغة المدينة فدخل السوق فنزل عن راحلته ثم جثا على ركبتيه ، ثم اعتمد على عصاه ، ثم أنشأ يقول :

عَرَفْتُ مَنَازِلاً بِعُرَيْتَناتٍ فَأَعْلَى الجِزْعِ لِلْحَيِّ المُبِينِّ

فقلت : هلك الشيخ ، ورأيته قد تبع قافية منكرة . . . فما زال ينشد حتى أتى على آخرها ، ثم قال : ألا رجلٌ ينشد ؟ فتقدم قيس بن الخطيم فجلس بين يديه وأنشد :

أَتَعْرِفُ رَسْمًا كاطرادِ المَذَاهبِ

حتى فرغ منها ، فقال : أنت أشعر الناس يا ابن أخي . قال حسان : فدخلني منه . وإني في ذلك لأجد القوة في نفسي عليهما ، ثم تقدمت فجلست بين يديه ، فقال : أنشد فوالله إنك لشاعر قبل أن تتكلم . قال : وكان يعرفني قبل ذلك ، فأنشدته . فقال : أنت أشعر الناس »[1].

ومن أمثلته أيضاً « . . . يوسف بن الماجشون عن أبيه قال ، قال حسان بن ثابت : أتيت جَبَلَةَ بن الأيهم الغساني وقد مدحته ... » ثم يذكر لقياه النابغة الذبياني وعلقمة بن عبدة هناك وإنشادهما شعراً لهما ثم إنشاد حسان شعراً مدح فيه الغساسنة[2] .

وثاني هؤلاء الشعراء هو الأعشى ، فقد عثرنا على ثلاث روايات مرفوعة كلها إليه ، الأولى : قدمنا الإشارة إليها حين تحدثنا عن رواة الشاعر ، فقد مر بنا أن للأعشى ثلاثة رواة — أو لعله راوية واحد اختلفوا في اسمه فأوردوا له ثلاثة أسماء فهو حيناً : عبيد ، وحيناً : يحيى بن مَتّى ، وحيناً ثالثاً : يونس بن مَتّى . وقد كان

---

(١) الأغاني ٣ : ٨ — ٩ .

(٢) الأغاني (ساسي) ١٤ : ٢ — ٧ .

هذا الراوية من المعمَّرين ، فروى عنه جميع الأخبار التى رواها عن الأعشى راويةٌ واحد بعينه هو سماك بن حرب . ثم روى عن سماك عدةُ رواة[١] .

فعبيد هذا يروى عن الأعشى خبر قدومه على النعمان وإنشاده بين يديه قصيدته[٢] :

إِلَيْكَ أَبَيْتَ اللَّعْنَ كانَ كَلالُهَا تَرُوح مَعَ اللَّيْل التِّمامِ وَتَغْتَدِى

وهو أيضاً يروى عن الأعشى أنه سأله تفسير كلمات فى أحد أبياته وذلك قوله[٣] :

وَمُدَامَة مِمَّا تُعَتِّقُ بابِلٌ كَدَمِ الذَّبِيح سَلَبْتُها جِرْيَالَها

فلما سأله : ماذا أردت بقولك ؟ قال : شربتها حمراء وبلتها بيضاء .

وهو كذلك يوازن بين الأعشى ولبيد فيقول[٤] : كان الأعشى قدَرِيًّا وكان لبيد مُثْبِتاً . قال لبيد :

مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الخَيْر اهْتَدَى نَاعِمَ البَالِ وَمَنْ شَاء أَضَلّ

وقال الأعشى :

اسْتَأْثَرَ اللهُ بالوَفاء وبالْـ ـعَدْلِ وَوَلَّى المَلَامَةَ الرَّجُلا

فلما سئل : من أين أخذ الأعشى مذهبه ؟ قال : من قبل العِبَاديين نصارى الحِيرة ، كان يأتيهم يشترى منهم الخمر فلقَّنوه ذلك .

---

(١) انظر ما تقدم عن رواة الشاعر فى الفصل الثانى من هذا الباب .

(٢) ابن قتيبة . الشعر والشعراء ١ : ٢١٥ .

(٣) الشعر والشعراء ١ : ٢١٥ – ٢١٦ ، وانظر أيضاً الجواليقى : المعرب ص : ٤٦ ، والبغدادى : الخزانة ٤ : ١٩٧ .

(٤) الأغانى ٩ : ١١٢ .

والرواية الثانية ماجاء فى شرح ديوان الأعشى للآمدى [١] : « قال أبو الحر : وجدت على ظهر كتاب المجاز لأبى عبيدة بخط أبى عسّان رفيع بن سلمة المعروف بدّماذ [٢] صاحب أبى عبيدة ، وحدّثنا به السكرى بعدُ حديثاً يرفع إلى الأعشى أنه قال . .. خرجت أريد قيس بن معديكرب بحضرموت ، فأضللت فى أوائل أرض اليمن لأننى لم أكن سلكت ذلك الطريق ، فلما أضللت أصابنى مطر ، فرميت ببصرى كل مرمى أطلب لنفسى مكاناً ألجأ إليه ، فوقعت عينى على خباء من شعر فقصدت نحوه فإذا أنا بشيخ ... » ثم يمضى فى قصة طويلة خلاصتها أنه أنشد هذا الشيخ مطلعى قصيدتين من قصائده فإذا بالشيخ ينادى ابنتين له فتنشدان القصيدتين كاملتين لا تخرمان منهما حرفاً ، فلما سقط فى يده وتحير وغشته رعدة قال له ذلك الشيخ : « ليُفْرِخْ رُوعك أبا بصير أنا هاجسك مسحل بن أثاثة الذى ألقى على لسانك الشعر » . فسكنت نفسه [٣] !

والرواية الثالثة حدّث بها أبو اليقظان قال [٤] حدثنى جويرية عن يشكر

---

(١) انظر السيوطى ، شرح شواهد المغنى : ٣٢٧ .

(٢) فى الأصل : « ديار » مكان « دماذ » وهو خطأ ، انظر الزبيدى ، طبقات اللغويين ص : ١٩٨ .

(٣) حديثنا هنا مقصور على الإسناد وحده — وأسطورية المتن واستحالته فى هذه الرواية والرواية التالية لا تنفى صحة الإسناد . فلقد كانوا فى الجاهلية يعتقدون بالرقى وبشيطان الشاعر ، وذكر الأعشى نفسه شيطانه مسحلا فى شعره (انظر الجاحظ ، الحيوان ٦ : ٢٢٥ - ٢٢٧ ، وجمهرة أشعار العرب : ٤٩ ، والموشح للمرزبانى : ٤٩) وجعلوا لكل شاعر صاحباً من الجن سموه (جمهرة أشعار العرب : ٣٣ - ٤٥) ولم يكتفوا بشعراء الجاهلية بل ذهبوا إلى أن شعراء الإسلام كانوا كذلك . فهذا جرير يهتف به صاحبه من الجن من زاوية البيت ويحدثه ويلقى إليه شعراً (الأغانى ٨ : ٦٩) ، والفرزدق يأتى جبلا بالمدينة وينادى بأعلى صوته : أجيبوا أخاكم أبا ليلى (النقائض : ٥٤٧) ، وهؤلاء الجن يجاوبون ذا الرمة ونصيباً وجريراً (الموشح : ١٦٩ — ١٧٠) وانظر أخبار بعض الصحابة والجن فى ابن سعد ٧ / ١ : ٤٨ ، ٧ / ٢ : ١١٦ ، والفائق ٣ : ١٨١ ثم انظر أخبار الجن ومناقشة هذه الأخبار فى الجاحظ ، الحيوان ٦ الحيوان ٦ : ١٦٤ — ٢٤٢ .

(٤) الأغانى ٩ : ١٥٦ .

ابن وائل اليشكرى — وكان من علماء بكر بن وائل وولد أيام مسيلمة فجيء به إليه فمسح على رأسه فعمى — قال جويرية : فحدثنى يشكر هذا قال : حدثنى جرير بن عبد الله البجلى (صحابى) قال : سافرت فى الجاهلية ، فأقبلت على بعيرى . . . فإذا قوم مشوّهون عند الماء فقعدت . فبينا أنا عندهم إذ أتاهم رجل أشد تشويهاً منهم فقالوا : هذا شاعرهم . فقالوا له : يا فلان أنشد هذا فإنه ضيف . فأنشد « ودع هُرَيْرَةَ إن الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ » . فلا والله ما خرم منها بيتاً واحداً حتى انتهى إلى هذا البيت .

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْوَاساً إذا انْصَرَفَتْ كَمَا اسْتَعَانَ بِرِيحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ[1]

فأعجبت به . فقلت : من يقول هذه القصيدة ؟ قال : أنا . قلت : لولا ما تقول لأخبرتك أن أعشى بنى ثعلبة أنشدنيها عام أول بنجران . قال : فإنك صادق ، أنا الذى ألقيتها على لسانه وأنا مسحل صاحبه ، ما ضاع شعر شاعر وضعه عند ميمون بن قيس[2] ! !

وشاعر ثالث جاهلى خالص ، هو امرؤ القيس — ، رُوىَ عنه أيضاً بإسناد متصل ، فقد سئل رؤبة بن العجاج عن هذا البيت[3] :

نَطعَنُهُمْ سُلْكَى ومَخْلُوجَةً كَرَّكَ لأَمَيْنِ على نَابِلِ

فقال رؤبة : حدثنى أبى عن أبيه قال : حدثتنى عمتى — وكانت فى بنى دارم — قالت : سألت امرأ القيس ، وهو يشرب طلاء له مع علقمة بن عبدة — : ما

---

(١) العشرق : شجيرة مقدار ذراع ، فيها حب صغار ، إذ جفت فرت بها الريح تحرك الحبب فسمع له شخشخة على الحصى .

(٢) انظر التعليقة رقم : ٣ ، فى الصفحة السابقة .

(٣) البصرى : التنبيهات على أغلاط الرواة : ٤

معنى قولك : كرّك لأمين على نابل ؟ فقال : مررت بنابل وصاحبه يناوله الريش لُؤّاماً وظُهاراً ، فما رأيت أسرع منه ولا أحسن ، فشبهت به[١] !

وشاعر رابع ، جاهلى أدرك الإسلام ، وهو سعية بن غريض ، وغريض هو السموءل المشهور . ورواية سعية هذه تختلف عن الروايات التى قدمناها من حيث إنها لا تروى خبراً عن الشاعر نفسه ، وإنما يروى فيها الشاعر خبراً من أخبار الجاهلية لا صلة له به . قال الهيثم بن عدى : حدثنى حماد الراوية عن سعيد بن عمرو بن سعيد عن سعية بن غريض — من يهود تيماء — قال[٢] : لما قتل الحارثُ بن أبى شمر الغسانى عمرَو بن حجر ملك بعده ابنه الحارث بن عمرو ، . . . فلما تفاسدت القبائل من نزار أتاه أشرافهم فقالوا . . . » (إلى آخر الخبر) .

ورُوى عن الحُطيئة خبر يفضّل فيه نفسه ، وراويه هو عبد الرحمن بن أبى بكرة عن الحطيئة ، قال عبدالرحمن[٣] : رأيت الحطيئة بذات عرق ، فقلت له :

---

(١) وامرؤ القيس هو أقدم الفحول من شعراء الجاهلية ، ومع ذلك فإن بعض شعراء الجاهلية الذين عمروا وأدركوا الإسلام أدركوا كذلك امرأ القيس فيما يزعمون . فمنهم مثلا : ربيع بن ضبع ، فهو القائل : (المعمرين : ٦ — ٧)

ها أَنَذا آمُلُ الخُلُودَ وقَدْ أَدْرَكَ عَقْلِى وَمَوْلِدى حُجُرا
أَبا امْرِئِ القَيْسِ هل سَمِعْتَ بِهِ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ طَالَ ذا عُمُرا

ومنهم أيضاً عمرو بن مسيح الطائى ، وهو المشهور بإجادة الرى ، ذكره امرؤ القيس فى شعره ، قال :

رُبَّ رَامٍ مِنْ بنى ثُعَلٍ مُتْلِجٍ كَفَّيْهِ فى قُتَرَهْ

وعمر عمرو بن مسيح حتى مات فى زمن عثمان بن عفان ! (المعمرين ٧٧ — ٧٨) .

(٢) الأغانى ٩ : ٨١ .

(٣) الشعر والشعراء ١ : ٢٨٣ .

يا أبا مُلَيْكة أىّ الناس أشعر؟ فأخرج لساناً دقيقاً كأنه لسان حية فقال: هذا إذا طمع .

وشاعر سادس رُوى عنه فى إسناد متصل ، هو النابغة الجعدى . والجعدى ممن عُمِّر عمراً طويلاً فى الجاهلية والإسلام، « ... إسماعيل بن عبد الله السكرى قال ، حدثنا يعلى بن الأشدق قال ، حدثنى نابغة بنى جعدة ، قال[1] : أنشدت النبى صلى الله عليه وسلم هذا الشعر فأعجب به :

بَلغنَا السَّماءَ مَجْدُنَا وَجُدُودُنا وإنَّا لَنَبغِى فَوْقَ ذلك مَظْهَرا

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ فقلت : الجنة . فقال: إن شاء الله . فقلت : إن شاء الله .

ولا خَيْرَ فى حِلمٍ إذا لم يَكُنْ لَهُ بوادِرُ تَحْمِى صَفْوَهُ أنْ يُكَدَّرا
ولا خَيْرَ فى جَهْلٍ إذا لمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إذا ما أوْرَدَ الأمْرَ أصْدَرَا

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أجدت ، لا يفضض الله فاك » .

٣

وأما القسم الثانى من هذا البحث عن الإسناد فتصل بهؤلاء العلماء الرواة الذين عاشوا فى القرن الثانى ومطلع الثالث ، وأخذ عنهم العلماء بعد ذلك شعر الجاهلية وأخبارها . فقد ذكرنا من قبلُ أن العلماء فى القرون التالية للقرن الثانى ، وخاصةً علماء القرنين الثالث والرابع ، كانوا يوردون جل أخبار الجاهلية وأشعارها مسندة إلى هؤلاء الرواة الأعلام من علماء القرن الثانى ، ثم يقفون عندهم

(١) الأغانى ٥ : ٨ .

لا يعدُونهم فى الغالب الأعم. وذكرنا أن هؤلاء العلماء الذين تنتهى عندهم الرواية الأدبية للجاهلية طبقتان، الطبقة الأولى هم : أبو عمرو بن العلاء وحماد الراوية ثم خلف الأحمر والمفضل الضبى ومن فى طبقتهم . وأما الطبقة الثانية فهم تلامذة هذه الطبقة الأولى ، وأشهرهم : الأصمعى وأبو زيد وأبو عبيدة وأبو عمرو الشيبانى ، ثم ابن الأعرابى ومحمد بن حبيب وأبو حاتم السجستانى ومحمد بن سلام ومن فى طبقتهم . ولكن انقطاع الإسناد عند هؤلاء الرواة وانتهاءه إليهم يحفزنا إلى أن نستقصى فى البحث عما وراءه لعلنا نستطيع أن ننبش الجذور الأولى التى قامت عليها رواية هؤلاء العلماء ، فنستبين مدى امتداد هذه الجذور واتصالها بالجاهلية .

وأول ما يستوقفنا فى سبيلنا رواياتٌ قليلة متفرقة مبثوثة — على تباعدٍ بينها — فى ما بين أيدينا من مصادر . وفيها يروى هؤلاء العلماء عن شيخ عالم راويةٍ كثيراً ما يكون من الأعراب الذين كانوا يأخذون منهم اللغة والشعر والأخبار ، وقد يمتدُّ بهم الإسناد فيرفعونه فى أحوال نادرة إلى جاهلى شهد ما يروون عنه . فمن هذه الروايات التى يذكر فيها هؤلاء العلماء راويةً سابقاً عليهم يأخذون عنه — ما نورده فيما يأتى :

يروى الأصمعى تحقيق اسم تأبط شرًّا وبيتاً له عن ابن أبى طرفة الهذلى ويقول[1] : كان ابن أبى طرفة الهذلى أعلمهم بتأبط شرًّا وأمره .

ويروى الأصمعى كذلك عن أبى طفيلة ، قال[2] : حدثنى من رأى مساور بن هند أنه ولد فى حرب داحس قبل الإسلام بخمسين عاماً .

ويروى أبو عبيدة فى سند متصل إلى الجاهلية[3] : « قال أبو عبيدة ،

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ٢٧١ .

(٢) الإصابة ٦ : ١٧١ ، وأبو طفيلة هذا أحد ثقات الأعراب وعلمائهم الذين أخذ عنهم الأصمعى وأبو عبيدة وأبو زيد ومن فى طبقتهم (انظر مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى ورقة ٦٤ — ٦٥) .

(٣) الأغانى (دار الكتب) ١١ : ٧٥ .

حدثنى عبد الحميد بن عبد الواحد بن عاصم بن عبد الله . . . قال ، حدثنى أبى عبد الواحد ، وعمى صفوان ، عن أبيهما عاصم بن عبد الله ، عمن أدرك شأس ابن زهير قال . . . » (ثم يورد خبراً عن شأس) .

ويروى أبو عبيدة كذلك فى سند آخر متصل إلى الجاهلية[١] « . . . أبو عبيدة قال ، حدثنا أبو المختار فراس بن خندق القيسى : قيس ثعلبة ، وعدة من علماء العرب قد سماهم فراس بن خندق » . وفى سياق الحديث — وهو عن يوم ذى قار — يسمى بعضهم فيقول[٢] : « قال سليط بن سعد بن معدان . . . بن ثعلبة : فحدثنا أسراؤنا الذين كانوا فيهم يومئذ — يوم ذى قار — قالوا : فلما التقى الناس . . . »

وروى المفضل خبراً عن امرئ القيس وعلقمة بن عبدة وشعراً لهما — حدثه به أبو الغول النهشلى عن أبى الغول الأكبر[٣] .

ويروى المفضل كذلك خبراً جاهلياً ذا إسناد متصل ؛ جاء فى النقائض[٤] : « وكان من قصة هذا اليوم — يوم أعشاش — ما حكاه الكلبى عن المفضل بن محمد عن زياد بن علاقة التغلبى أن أسماء بن خارجة الفزارى حدثه بذلك قال : أغار بسطام . . . » إلى آخر الخبر ، وبسطام هذا أخذ أم أسماء بن خارجة ، وأسماء يومئذ غلام شاب يذكر ذلك . فرواية أسماء إذن رواية من شاهد الخبر المروىّ ، وإسنادها متصل .

ويروى ابن الكلبى فى سند متصل إلى أشياخ أدركوا الجاهلية — شعراً لشعراء جاهليين كامرئ القيس وعنترة فيه ذكر أسماء أماكن « قال أبو زيد عمر بن شبة عن هشام قال : حدثنى محمد بن عبد الرحمن الأنصارى ، عن عمرو بن

---

(١) النقائض : ٦٣٩ .
(٢) النقائض : ٦٤٤ .
(٣) المرزبانى ، الموشح : ٣٠ .
(٤) ص : ٧٥ .

الصامت بن شداد بن يزيد بن مرّداس السلميّ، عن أشياخ من بنى تميم أدركوا الجاهلية ، قالوا . . . »[١] .

وروى حماد الراوية خبراً يتصل بالحطيئة عن أبى نصر الأعرابى . وروى حماد كذلك خبرين عن الأعشى ، أحدهما : عن معقل عن أبى بكر الهلالى[٢] والثانى : عن سماك بن حرب[٣] .

وروى أبو عمرو بن العلاء شعراً لامرئ القيس بن عابس ، وذكر منه ستة أبيات ثم قال[٤] « وزادنى فيها الجمحى » وذكر ثلاثة أخرى . وروى أبو عمرو أيضاً[٥] « عن شيخ من أهل نجد كان أسنّهم » .

وكان أبو عمرو بن العلاء يجتمع هو وشعبة عند أبى نوفل بن أبى عقرب ، قال شعبة[٦] : فأسأله عن الحديث خاصةً ، ويسأله أبو عمرو عن الشعر خاصةً ، فلا أكتب شيئاً مما يسأله عنه أبو عمرو ، ولا يكتب أبو عمرو شيئاً مما أسأله أنا عنه[٧] .

ومن اليسير أن يتتبع الباحث شيوخ هؤلاء العلماء الرواة ، ويعرف بعضهم بأسمائهم ، غير أن من العسير أن يرجع ، إلا فى القليل النادر ، مفردات هذه الروايات التى يروونها سواء أكانت شعراً أم خبراً — إلى الشيوخ الذين أخذها عنهم هؤلاء العلماء الرواة .

ومن هؤلاء الشيوخ : الأعراب الفصحاء الذين كانوا يفدون إلى الحواضر

---

(١) البكرى ، معجم ما استعجم ١ : ٣٢٤ — ٣٢٦ .
(٢) الأغانى ٩ : ١١٧ .
(٣) الأغانى ٩ : ١٢٤ .
(٤) السيرافى ، أخبار النحويين البصريين : ٢٩ .
(٥) المصدر السابق : ٣٠ .
(٦) السيوطى ، المزهر ٢ : ٣٠٤ نقلا عن فوائد النجيرمى .
(٧) انظر هذه الرواية أيضاً فى طبقات الزبيدى ص: ٢٥ و ص: ٣٠ وفيها «الفقه» بدل «الحديث» و «اللغة» بدل «الشعر» .

فيأخذ عنهم هؤلاء العلماء اللغة والشعر والأخبار[١] . ويعنينا من أمر هؤلاء الأعراب ثلاثة أخبار لها قيمتها وخطرها ، أولها : ما أورده أبو علي القالي قال[٢] : « حدثنا أبو بكر بن دريد رحمه الله — قال : كان أبو حاتم يضن بهذا الحديث ويقول : ما حدثني به أبو عبيدة حتى اختلفت إليه مدة ، وتحملت عليه بأصدقائه من الثقفيين ، وكان لهم مؤاخياً — قال ، حدثنا أبو حاتم قال ، حدثني أبو عبيدة قال ، حدثني غير واحد من هوازن من أولى العلم وبعضهم قد أدرك أبوه الجاهلية أو جده — قال : اجتمع عامر بن الظرب العدواني . . . » إلى آخر الخبر .

فأبو عبيدة إذن كان يروى بعض ما يرويه عن أعراب أدرك آباؤهم الجاهلية وقد مرّ بنا قبل قليل في الصفحة السابقة أن المفضّل يروى عن رجل يروى عمن أدرك الجاهلية .

وثانى هذه الأخبار الثلاثة ما أورده الشريف المرتضى من حديث لبيد والنعمان ، فقد ذكر إسناداً في نهايته « عن الكلبي عن عبد الله بن مسلم البكائي ، وكان قد أدرك الجاهلية »[٣] .

ومما يكمل هذا ويوصلنا إلى ما نرمى إليه من هدف — الخبر الثالث الذى يرويه أبو عبيدة ، ولكنه يرويه هذه المرة ويقصد به شيخه بل شيخ الرواة جميعاً : أبا عمرو بن العلاء . قال أبو عبيدة يشير إلى أبي عمرو[٤] « وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية » .

---

(١) ذكرت بعض المصادر أسماء بعض هؤلاء الأعراب : انظر الفهرست لابن النديم ص : ٦٥ وما بعدها ، وطبقات الزبيدى : ١٧٥ .

(٢) الأمالى ٢ : ٢٧٦ .

(٣) أمالى السيد المرتضى ١ : ١٣٧ .

(٤) البيان والتبيين ١ : ٣٢١ ، وانظر كذلك ديوان زهير (دار الكتب) ص ٣٣٩ هامش : ٤ ، حيث ذكر خبراً يشبه هذا من نسختين من نسخ الديوان الخطية .

فإذا مضينا نحن وراء هذا القول لنحقق صدقه ، وجدنا فى بعض ما سنورده ما يغنينا عن الإطالة :

قال ابن سعد[١] « أخبرنا عبد الملك بن قُرَيب قال : أخبرنا أبو عمرو بن العلاء قال : قلت لأبى رجاء العطاردى : ما تذكر ؟ قال : قتْلَ بسطام بن قيس ، ثم أنشد بيتاً رُثِّى به :

فَخَرَّ على الأَلاءةِ لَمْ يُوَسَّدْ كَأَنَّ جَبِينَهُ سَيْفٌ صَقِيلُ »

وقد وُلد أبو رجاء هذا فى الجاهلية ثم أدرك النبى صلى الله عليه وسلم وهو شاب[٢] ، وأسلم بعد الفتح[٣] ، وتوفى فى نحو سنة ١١٧[٤] .

وقد مر بنا قبل قليل أن أبا طفيلة يروى عمن أدرك الجاهلية ، وقد كان أبو طفيلة هذا نحو أبى عمرو بن العلاء فى السن[٥] .

وهذا مِسْعَرُ بن كِدَام (المتوفى سنة ١٥٢ أو ١٥٥ — وهو معاصر لأبى عمرو ابن العلاء) يروى عمن أدرك الجاهلية أيضاً . « قال عمير بن الحباب ، وروى ذلك عنه مسعر ، ما أغرتُ على حىّ فى الجاهلية أحزم امرأةً ولا أعجز رجلاً من كلب ، ولا أحزم رجلاً ولا أعجز امرأةً من تغلب[٦] » .

وهذا شيخ معمر حضر الجاهلية ، ومع ذلك فقد كان ممن استمع إلى جرير وهو ينشد ، وجرير عاصر أبا عمرو نصف قرن (مات جرير سنة ١١٠) . كان جرير ينشد أبياته[٧] :

---

(١) الطبقات ٧ : ١٠٠ ، وانظر المعارف لابن قتيبة : ١٨٩ .
(٢) ابن سعد ٧ : ١٠٠ .
(٣) خلاصة التهذيب (عمران بن طحان) .
(٤) الزمخشرى ، الفائق ١ : ٢٦٠ .
(٥) الإصابة ٦ : ١٧١ .
(٦) البيان والتبيين ١ : ٤٠٠ — ٤٠١ .
(٧) المرزبانى ، الموشح : ١٢٥

فَمَا شَهِدَتْ يوْمَ النَّقَا خَيْلُ هَاجِرٍ وَلَا السِّيْدُ إِذْ يُبْطَحْنَ بِالْأَسَلِ السُّمرِ
ولا شَهِدَتْ يوْمَ الغبيطِ مُجَاشِعٌ ولا نَقَلان الحيّ من قُنَّتَيْ نسْرِ

قال : وشيخ من بنى ثعلبة يقال له: النخار بن العقار ، كبير قد شُدَّ حاجباه وقد سقطا على عينيه ، فقال : ولا كليب والأجلّ ماشهدت ، ولا كنا إلا سبعة فوارس من بنى ثعلبة » .

ومن اليسير أن نجمع أسماء كثيرين من المعمَّرين الذين أدركوا الجاهلية وماتوا فى نهاية القرن الأول أو مطلع الثانى ، فمن ذلك :

عرام بن المنذر بن زبيد . . أدرك الجاهلية وأدرك عمر بن عبد العزيز[١] وحَيْدة من ولد كعب بن ربيعة أدرك الجاهلية وأدرك بشر بن مروان[٢] . وشُرَيح ابن هانئ عاش فى الجاهلية دهراً وقتل فى ولاية الحجاج[٣] .

بل إن من هؤلاء المعمرين شعراء مشهورين من مثل :

أرطاة بن سُهيَّة : أدرك الجاهلية ووفد على عبد الملك بن مروان فسأله عما بقى من شعره ، وكان عمره آنذاك مائة وثلاثين سنة[٤] . وأيمن بن خريم : أسلم هو وأبوه يوم الفتح وأدرك عبد العزيز بن مروان[٥] . وعمرو بن أحمر بن العمرَّد : كان من شعراء الجاهلية المعدودين وقال فى الجاهلية والإسلام شعراً كثيراً ، وأدرك عبد الملك بن مروان[٦] .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، ولكن المغالاة فى أعمار المعمَّرين كثيرة كذلك ،

---

(١) أبو حاتم السجستانى ، كتاب المعمرين:٧١ ، وأبو على القالى ، الأمالى ٣ : ٧٠ .
(٢) المعمرين : ٨٦ .
(٣) المصدر السابق : ٣٨ .
(٤) الشعر والشعراء ١ : ٥٠٤ ، والموشح : ٢٤٢ .
(٥) الشعر والشعراء ١ : ٥٢٦
(٦) الأغانى ٨ : ٢٣٤ ، وفى معجم الشعراء للمرزبانى أنه مات فى عهد عثمان ! !

وبعضها لا يكاد يصدَّق . قال الجاحظ[١] « وإن فى الأعراب لأعماراً أطول ، على أن لهم فى ذلك كذباً كثيراً » .

وقد أوردنا من الأسماء والأخبار ما يصح فى الفهم ويقبله العقل ، فليس من الغريب أن يكون فى الأمة نفر يبلغون من العمر ما يزيد قليلاً على مائة سنة ، وذلك شىء مألوف فى كل زمان وعند كل أمة ، وما زلنا نحن نسمع فى زماننا هذا عمن يتخطى المائة وقد يبلغ العشرين والمائة أو الخمسين والمائة ، وخاصة فى القرى وبين البدو . ومن المشهور المتداول أن الأعمار كانت فى الماضى أطول مما هى الآن ، ومردّ ذلك إلى أمور لا مجال لسردها .

وقد رجحنا فى غير هذا الموطن أن أبا عمرو بن العلاء بدأ يأخذ عن الرواة والعلماء والأعراب ، بل كان يتصدر للرواية والتدريس ، فى نحو سنة ٨٠ للهجرة أو بعدها قليلاً[٢] . ومن أجل ذلك ليس بمستغرب أن يكون فى زمنه أعراب عاشوا فى الجاهلية بين عشر سنوات وسبعين سنة ، فتكون سنهم عام روى عنهم أبو عمرو ومن فى طبقته تتراوح بين تسعين سنة ومائة وخمسين سنة[٣] .

٤

غير أن هذه الروايات المسندة — التى يرتفع إسنادها إلى ما قبل علماء القرن الثانى قليلة نادرة ، لا تعدو ما أوردناه ، وقد يضم إليها مثلُها مما تجاوزنا عن ذكره أو لم نعثر عليه . وهى كلها لا تكاد تقيم لنا ما نستطيع أن نبحث فيه لأن

---

(١) الحيوان ١ : ١٥٧ .

(٢) انظر ص: ١٥٦ من هذا البحث .

(٣) ومع ذلك فقد قال المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى (تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٩٧ هامش ١) « رأينا فى كثير من الكتب أن أبا عمرو بن العلاء روى عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية ، وذلك خطأ ركبه النساخ ، والصواب أنه روى عن أعراب قد أدركوا أعراب الجاهلية » . ولا حاجة بنا إلى الرد على هذا التخريج فقد ذكرنا ما فيه غناء .

بعضها قائم على الجهل برواته فى مثل « عمن أدرك فلاناً » أو « حدثنى من رأى فلاناً » أو « عن أشياخ من بنى فلان » أو « عن رجال أدركوا الجاهلية » . ولأن بعضها منقطع لا يذكر فيه إلا راوية واحد قبل هؤلاء العلماء ، كثيراً ما يكون من الأعراب الفصحاء . والثقة بمثل هذه الأسانيد لا سبيل إلى تحقيقها ، وإنما تكون الثقة بمعرفتنا العالم الراوية الذى أوردها ، فإما أن نوثّقه فنقبل منه ما يروى مع إسناده ، وإما أن نجرحه ونضعفه فلا سبيل إلى قبول روايته مهما يكن إسنادها عالياً . وتوثيق هؤلاء العلماء أو تضعيفهم هو موضوع حديثنا فى القسم التالى من هذا البحث .

غير أن الأمر الذى يكاد البحث العلمى الدقيق ينتهى إلى ترجيحه أن الإسناد فى الرواية الأدبية والشعر خاصةً ، شىء قد كان ، وأن العلماء الرواة من رجال الطبقة الأولى أخذوا الشعر الجاهلى بالرواية عمن قبلهم ، وإنْ كان تلامذتهم من بعدهم قد أغفلوا النص على الإسناد قبل هذه الطبقة الأولى ، وبين أيدينا نصّان ناطقان بيّنا الدلالة :

أولهما — أن الأصمعى يورد شعراً هُذَليًّا ثم يقول[1] : « سألت ابن أبى طرفة عن هذا فلم يعرفه ، ولم يكن عند أبى عمرو فيها إسناد » .

وثانيهما — أن الأصمعى نفسه يورد قصيدة النابغة :

أَمِنْ آلِ مَيَّةَ رائِحٌ أَوْ مُغْتَـــدِ عَجْـــلانَ ذا زادٍ وَغَير مَزوَّدِ

ثم يقول[2] : « ليس عندى فيها إسناد ، وهى له حقًّا » .

فقد كان إذن عند أبى عمرو بن العلاء وعند الأصمعى أسانيد للشعر الجاهلى الذى رواياه ، ولكنهما لم يلتزما ذكرها دائماً ، واكتفيا بالنصّ على عدم وجودها حين لم يكن عندهما إسناد .

---

(١) ديوان الهذليين (دار الكتب) ١ : ١٥٩ .

(٢) ديوان النابغة (شرح الأعلم — خمسة دواوين العرب) ص : ٢٧ .

ولنا ، بعد هذا ، أن نتساءل عما وقف بهذه الأسانيد عند هؤلاء العلماء فلم تتجاوزهم إلا فى هذا القليل النادر الذى لا غناء فيه والذى ضربنا له الأمثلة ؟ والجواب على ذلك قائم فيما يبدو لنا على أمرين ، الأول : هو أن رواية الجاهلية بأخبارها وأشعارها — وإن كانت ظلت متصلة منذ الجاهلية نفسها إلى زمن هؤلاء العلماء على ما بيّناه فى الفصول السابقة — إلا أنها كانت ، قبل القرن الثانى ، من الثقافة العامة التى لا يختص بها أحد ، ومع ذلك لا يتجرد منها أحد . فقد كان المفسر والمحدّث والفقيه والقاصّ يروون شعر الجاهلية وأخبارها ؛ وكانت هذه الأخبار والأشعار آلة من آلاتهم يتوسلون بها لتفسير لفظ فى كتاب الله أو حديث رسوله ، ويسوقونها ليفصّلوا بها مجمل ما ورد فى القرآن من القصص وأخبار الأمم ، أو ليزينوا بهذا الشعر ما يقصونه على الخلفاء فى القصور وعلى العامة فى المساجد من قصص تاريخية أو دينية . وكانت ثمة طائفة أخرى تحفظ أخبار الجاهلية وأشعارها غير هذه الطائفة من العلماء المفسرين أو المحدثين أو الفقهاء : فكان الخلفاء والأمراء والولاة وأبناؤهم يتعلمون الشعر الجاهلى ويروّيهم إياه مؤدبوهم ، وكان أبناء الشاعر وسلالته وأفراد قبيلته يحفظون شعره وينشدونه فى مجالسهم ومحافلهم ، ولكن هؤلاء جميعاً لم يكونوا من العلماء المختصين بهذا الضرب من العلم ، المنصرفين إليه ، المشتغلين به ، كما صار شأن العلماء فى القرن الثانى . ومع ذلك فإننا نجد ، فى مثل الأسانيد القليلة التى ذكرناها ، أن بعض الشعر الجاهلى يرويه علماء القرن الثانى عن بعض من ذكرنا من المفسرين والمحدثين والفقهاء ، أو أبناء الشاعر وأفراد قبيلته .

فالرواية الأدبية بمعناها العلمى الذى عرفه القرن الثانى لم تكن موجودة — إذا صح ما ذهبنا إليه — قبل زمن أبى عمرو بن العلاء وحماد الراوية ومن عاصرهما . ومن هنا كان هؤلاء هم — فى الغالب الأعم — نهاية الإسناد فى الرواية الأدبية ، يأخذها من جاء بعدهم — على مر العصور — على أنها ، فى جملتها ، صحيحة

موثّقة[١] لا يسأل عمن أخذها هؤلاء ، ولا يجد فى انقطاع الإسناد عندهم ما يضعف من هذه الرواية . ومن هنا كان الإسناد فى الرواية الأدبية هو القاعدة العامة فى القرنين الثالث والرابع ، يرتفع حتى يصل إلى هذه الطبقة الأولى من العلماء ثم يقف عندها لا يتجاوزها .

والأمر الثانى منبثق من هذا الأمر الأول . وذلك ما أشرنا إليه فيما تقدم من أن أمر الشعر الجاهلى كان عرَضاً من أعراض هذه الدنيا ، يرتزقون بروايته وذكر أخباره حيناً ، وينتشون بما فيه من إمتاع فنى حيناً آخر ، ويتحلون به فى ثقافتهم العامة حيناً ثالثاً ، ويتناولونه فى جميع هذه الأحوال تناولاً فيه يُسْر وإسماح . فلم يكن يتصل بأمور دينهم كما كان يتصل الحديث أو التفسير ، ولم يكن يترتب عليه شأن من شؤون التشريع أو الفقه ، ولذلك وجدنا بعض المحدّثين أنفسهم يضيقون بما يأخذون به أنفسهم وما يأخذهم به الناس من أمر الإسناد ، والتشدد فى رواية الحديث ، والتحرج من الإكثار منها وتحرى الضبط والدقة لئلا يقولوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل فيتبؤوا مقعدهم من النار . ولا يجد هؤلاء لأنفسهم متنفساً يتنفسون فيه أرحب وأوسع من رواية الشعر وإنشاده حيث لا حرج ولا إثم . ومن هنا كان التزام الإسناد المرفوع فى رواية الحديث ، وانقطاع الإسناد فى رواية الأدب والشعر .

ومع أننا ذكرنا أن الإسناد فى الرواية الأدبية لم يصبح قاعدة ملتزمة إلا فى القرنين الثالث والرابع حيث يرتفع الإسناد إلى رجال الطبقة الأولى من علماء القرن الثانى ، فإننا مع ذلك ، نجد بعض علماء هذين القرنين يضيقون بهذا الإسناد — على قصره — فالمبرد مثلاً كان يهمل الإسناد حينما يتحدث أو يملى ، ويبدو أنه كان مشهوراً بحذف الإسناد حتى قال ثعلب[٢] : « ما رأيت أحفظ لأخبار

---

(١) يستثنى من ذلك ما سنذكره من أمر الخصومات التى قامت بين المدارس المختلفة أو بين أفراد المدرسة الواحدة .

(٢) نزهة الألباء : ١٤٨ ، وانظر ياقوت ، إرشاد ١٩ : ١١٢ .

بغير أسانيد من المبرد ومن أبي العباس بن الفرات » . ولو رجعنا إلى كتب المبرد أو إلى بعض من نقل عن المبرد لوجدنا أن هذه الصفة واضحة فيه وإنْ لم تكن عامة ولا غالبة ، ففي كتبه إسناد متصل حيناً ، ومنقطع حيناً آخر ، وفيها حذف للإسناد ونصٌّ على هذا الحذف . فإذا ما أخذنا كتابه « الفاضل » مثلاً وجدناه ، حينما يحذف الإسناد، يكثر من استعمال صيغة البناء للمفعول من مثل «يُرْوى»[١] و « يُرْوى من غير وجه »[٢]، و « قيل »[٣] و « ذُكر »[٤] و « حُدِّثت »[٥] وهو أحياناً يذكر شيخه الذي يروى عنه ثم ينص على حذف الإسناد بعده مثل « وحدثني ابن عائشة عن بعض أشياخه »[٦] و « حدثني مسعود بن بشر في إسناد متصل »[٧] و « حدثني مسعود بن بشر في إسناد ذكره »[٨] و « حدثني الرياشي في إسناد ذكره»[٩] و «حدثني الرياشي — ولا أحفظ عمن حدثنيه»[١٠]. وهو لا يهمل الإسناد في الأخبار والشعر حسبُ ، وإنما يفعل ذلك أيضاً في الحديث ، فهو يقول مثلاً[١١] « يُرْوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال » وكذلك « حدثني الرياشي قال : روى لنا أشياخنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ... »[١٢] ومن هنا أورد المرزباني عن المبرد قوله[١٣]: « حُدِّثت في إسناد

---

(١) ص : ٥
(٢) ص : ١ ، ٢٩ ، ٣٢
(٣) ص : ٧
(٤) ص : ٥
(٥) ص : ٥٠
(٦) ص : ٤٢
(٧) ص : ٥٠
(٨) ص : ٥٢
(٩) ص : ١٢ و ص : ٦٢
(١٠) ص : ٧٢
(١١) ص : ١ ، ٣ ، ٤ ، ١٥
(١٢) ص : ٩
(١٣) الموشح : ٢١٣ - ٢١٤

متصل أن أبا النجم العجلى أنشد هشاماً . . . »

وكان لحذف الإسناد أحياناً علة يذكرها المؤلف ، فمن ذلك أن الصولى حذف الإسناد فى « أدب الكتاب » وقال[١] « قد ذكرت أن أختصر جميع ما أذكره وألتى أسانيده ليقرب على طالبه ومستفيده إلا ما لا بد منه من ذكر نسبته وإسناده » .

وكذلك فعل ابن قتيبة — وإن لم يكن صنيعه هذا فى الرواية الأدبية الخالصة — فقد نص على حذف الإسناد فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » وذكر علة ذلك فقال[٢] « ولم يجزْ لى أن أنصّ بالإسناد إلى من له أصل التفسير إذ كنت لم أقتصر على وحى القوم حتى كشفته ، وعلى إبمائهم حتى أوضحته ، وزدت فى الألفاظ ونقصت ، وقدمت وأخرت ، وضربت لبعض ذلك الأمثال والأشكال حتى يستوى فى فهمه السامعون » .

وممن حذف الإسناد أيضاً واكتفى بالنص على آخر من روى عنه : أبو على القالى ، فقد ألف كتاب « البارع » فى اللغة « فبناه على حروف المعجم ، وجمع فيه كتب اللغة ، وعزا كل كلمة إلى ناقلها من العلماء ، واختصر بالإسناد عنهم »[٣] .

ولعلنا لا نعدو الصواب حينما نخلص من كل ذلك إلى أن الإسناد لم يكن — حتى فى القرنين الثالث والرابع حين شاع وغلب — أصلاً ثابتاً من أصول الرواية الأدبية ، ولم يكن أساساً من الأسس التى يُحتكم إليها فى الاستشهاد على صحة هذه الرواية كما كان شأنه فى رواية الحديث النبوى . فنحن نرى أن العلماء والرواة ، فى اللغة والشعر والأخبار ، كانوا يقدمون بين يدى ما يروون بإسناد متصل إلى الطبقة الأولى من العلماء الرواة حيناً ، وبإسناد منقطع حيناً آخر

---

(١) أدب الكتاب : ٢٨ .

(٢) المشكل : ١٨ .

(٣) الزبيدى ، طبقات النحويين واللغويين : ٢٠٣ .

يكتفون فيه بذكر شيخهم الذى أخذوا عنه هذا العلم ، أو يتجاوزون شيخهم وربما شيخ شيخهم ، ويقنعون بذكر أول من رُوى عنه هذا الشعر أو ذلك الخبر ، مختصرين الإسناد اختصاراً إلى نهايته ؛ ونراهم حيناً ثالثاً يحذفون الإسناد ويهملونه إهمالاً ويلقون بالخبر أو الشعر قائماً مجرداً . وكان العلماء الرواة من معاصريهم وتلاميذهم يقبلون منهم كل ذلك ويوثقونه : يقبلون إسنادهم المتصل ، ويقبلون إسنادهم المنقطع حين يقف عند شيخهم ، وحين يهمل حلقة أو حلقتين من هذه السلسلة ويكتفى بأول حلقاتها ، ثم يقبلون منهم الخبر وحده من غير إسناد .

فإذا كان ذلك كذلك فما معنى الإسناد إذن ؟ والجواب على ذلك مفصل فيما قدمناه عن مجالس العلم وعن التصحيف فى فصل سابق . فقد كان العلماء يضعّفون من يقتصر فى علمه على الأخذ من الصحف من غير أن يلقى العلماء ويأخذ عنهم فى مجالس علمهم ، ويسمونه صحفيًّا ، ومن هنا اشتقوا «التصحيف» وأصله « أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته فى صحيفة ولم يكن سمعه من الرجال فيغيره عن الصواب » . فالإسناد فى الرواية الأدبية لم يكن ، فيما نرى ، إلا دفعاً لهذه التهمة ، وإلا حجة يقدمها العالم على أنه أخذ علمه من أفواه الشيوخ فى مجالس العلم . فإذا ما بلغ هذا العالم من العلم شأواً بعيداً ، وعرفت منزلته بين العلماء ، واشتهر أمر شيوخه وأنه أخذ العلم عن فلان وفلان فى مجالسهم وحلقات درسهم — فلا عليه بعد ذلك أن يهمل الإسناد ، فهو يسند حيناً إسناداً متصلاً أو إسناداً منقطعاً ، وهو يحذف الإسناد حيناً آخر واثقاً مطمئنًّا إلى أن ذلك لن يضيره .

أما إذا كان أمر العالم على غير هذا الوجه ، وكان متهماً بأنه يمتح من ذات نفسه ، وأنه لم يأخذ ما يروى عن عالم من شيوخ العلم قبله ، فحينذاك يتصدى

له أهل العلم والرواية يطالبونه بالإسناد . حدّث المازنى قال[1] « روى برزخ بن محمد العروضى (وكان معاصراً لحماد الراوية وجناد وكان متهماً بالكذب) شعراً لامرئ القيس ، فقال له جناد : عمن رويت هذا ؟ قال : عنى ، وحسبك بى ! فقال له جناد : من هذا أتيت يا غافل » .

ولو كان الإسناد أصلاً من أصول الرواية الأدبية — كما هو فى رواية الحديث — إذن لوجدنا بين يدى كل خبر وكل بيت من الشعر أو مجموعة من الأبيات إسناداً ملتزماً كالإسناد الذى يلتزم بين يدى كل حديث نبوىّ ، ولكان كل سند من هذه الأسانيد الأدبية متصلاً مرفوعاً فى الشعر إلى الشاعر الجاهلى أو إلى راويته ، وفى الخبر إلى من شهده فى الجاهلية ، ولوجدنا بعد ذلك كتباً يعنى فيها أصحابها بتخريج الشعر الجاهلى من طرقه المختلفة ، ثم لوجدنا كتباً فى تعديل رواة الأدب وتجريحهم كما هو الشأن عند أصحاب الحديث .

وكل ذلك لا نجده فيما بين أيدينا ، فأكثر الشعر الجاهلى فى كتب الأدب العامة وبعض الدواوين غير مسند ، وأما المسند منه فأقصى ما يصل إليه إسناده هم الطبقة الأولى من العلماء الرواة فى منتصف القرن الثانى ، وبعضه لا يرقى إلا إلى الطبقة الثانية ، وأحياناً إلى الطبقة الثالثة من علماء مطلع القرن الثالث ونهايته . وليس بين أيدينا كتاب واحد لتخريج الشعر الجاهلى من طرقه المختلفة ، ولا كتاب واحد للجرح والتعديل فى رواة الأدب ، ولا ينقض هذا القول ما نجده فى بعض معاجم الرجال وطبقات الأدباء واللغويين والنحويين ، فهى كتب فى التاريخ الأدبى العام ، تترجم للعالم أو الراوية ترجمة عمادها السرد والقصص من غير توجيه لهذا السرد أو لتلك القصص لتدلّ على حكم خاص فى توثيق المترجم له أو تضعيفه ، إلا فى القليل النادر حيث نجد الاتهام بالكذب أو الوضع يلقَى إلقاءً مجرّداً من البينة والدليل ، بل لا يكاد ينتهى المؤلف من إلقاء اتهامه حتى

---

(١) ياقوت — إرشاد ٧ : ٧٣ .

يتبعه بقصة أخرى أو رأى آخر فيهما توثيق وتعديل . وسنبين فى فصل مقبل — عند حديثنا عن النحل — أن كثيراً من التجريح والتضعيف والاتهام بالكذب والوضع إنما كان مصدره خصومات شخصية أو خلافات مدرسية ومذهبية لانصيب لها من التحقيق العلمى الذى يطمأن إليه . وقد يكون أمر الجرح والتعديل فى رجال الحديث قد جرى على مابيّناه من أمر الجرح والتعديل فى رواة الأدب ، غير أننا نقصر حديثنا هنا على الرواية الأدبية وحدها ولا سبيل إلى توسيع البحث فى الحديث عن غيرها .

فليس للرواية الأدبية إذن علم للسند ونقده ، بل ليس للرواية الأدبية سند كالسند الذى عرفه الحديث النبوى ، وقصارى السند فى الأدب — حين يوجد — أن يكون دليلاً على أن الراوية قد لقى العلماء وأخذ علمه من أفواههم فى مجالس العلم ولم ينقله من صحيفة .

غير أن لكل إطلاق تقييداً ، وتقييد هذا الإطلاق ، الذى قدّمناه ، فى بعض دواوين الشعر . ولكنه تقييد لا يكاد يقيّد ، بل إنه ليزيدنا اطمئناناً إلى ما قدّمنا من إطلاق . وتفصيل ذلك أن حديثنا السابق كان منصبّاً على ما فى كتب الأدب العامة من أدب الجاهلية : شعرها وأخبارها . ولكن ثمة دواوين للشعر الجاهلى جمعها بعض علماء الطبقة الأولى من الرواة ودوّنوها ، ثم أخذها عنهم تلاميذهم من علماء الطبقة الثانية ودوّنوها روايةً عنهم ، وأضافوا إليها بعض ما سمعوه من هؤلاء الشيوخ : من تفسير لغريبها ، أو شرح لأبياتها ، أو ذكر مفصل لما تعرض له من حوادث وإشارات تاريخية . ثم جاء رجال الطبقة الثالثة من العلماء والرواة فأخذوا هذه الدواوين — التى جمعها رجال الطبقة الأولى — عن علماء الطبقة الثانية ، وأضافوا إليها أيضاً ما سمعوه من هؤلاء العلماء من شرح وتفسير وبيان تاريخى . وقد بقيت بعض هذه الدواوين حتى وصلت إلينا ، وفى صدر بعضها سند يبدأ بعالم راوية فى القرن الرابع أو أواخر القرن الثالث وينتهى بعالم من رجال الطبقة الأولى . وقد يكون الديوان خليطاً من روايات عدة

جمعها لنا العالم الأخير بعد أن رواها عن شيوخ مختلفين ، كل شيخ منهم رواها عن شيخ أو شيوخ سابقين ، أو قد يكون الديوان كله رواية واحدة من حيث الشعر ولكن شرحه وتفسير غريبه مرْوِيٌّ عن شيوخ متعددين ، ويكون العالم الراوية الذى جمع لنا كل ذلك حريصاً على أن يسند كل قصيدة إلى راويها لأصلى، وأحياناً ينص على ما فيها من أبيات تفرَّد بروايتها راوٍ دون آخر ، مما سنعرض له بالبيان فى الفصول التى سنعقدها عن الدواوين فى آخر هذا الكتاب.